عـود الـنــد

ISSN 1756-4212

مجلة ثقافية فصلية

رئيس التحرير: د. عـدلي الهواري

العـدد الـفـصـلي 4: ربيع 2017

ملف: الصحافة وأزماتها في عصر الإنترنت

ملف: ذكريات عن مخيم الكرامة



مقالات - قصص قصيرة - إصدارات جديدة

المحتويات

ملف 2: ذكريات مخيم الكرامة

أخبار ومعلومات مفيدة

وداعا أمينة الهواري



في يوم المرأة العالمي (2017/3/8)، فقدت وعائلتي امرأة عظيمة: أمينة علي الهواري (أم سليم)، التي منذ صغرها كانت ترعى بقية أخواتها وإخوتها. وتعاملت مع كل ظروف الحياة الصعبة بصبر لم يفقدها المقدرة على العطاء، وإحاطة بناتها وأبنائها وبقية الأخوة والأخوات والوالدين بكثير من الحب والحنان حتى آخر يوم من حياتها. في حياتنا وقلوبنا الآن فراغ كبير. وداعا أختي الحبيبة.

إنا لله وإنا إليه راجعون.

عدلي الهوراي

د. عدلي الهواري

كلمة العدد الفصلي الرابع

الصحافة وأزماتها في عصر الإنترنت



عندما يحدث تقدم تقني، قد لا يحظى بالقبول الفوري، ولكنه بعد فترة تطول أو تقصر، يفرض نفسه، وينتشر انتشارا واسعا. الفيلم الصامت كان في الماضي شائعا ومقبولا. وعندما ظهر اختراع يمكّن من تسجيل الصوت وجعله يرافق الصورة، لم يعد أحد ينتج فيلما صامتا إلا في حالات استثنائية. وعندما أمكن التصوير بالألوان، صار من النادر بعد بعض الوقت أن نرى فيلما جديدا ينتج بالأسود والأبيض.

الحاسوب كنا نسمع عنه ولكن لا نراه. ظل حجمه يصغر إلى أن أصبح ممكنا حمله من البيت إلى العمل أو الجامعة، وتعددت استخداماته، فصار لا غنى عنه للطالب والكاتب والمصور، إلى آخره. والهاتف الذكي صار في كل يد تقريبا، وهو حاسوب صغير متعدد الاستخدامات، إضافة إلى كونه هاتفا.

عندما ظهرت الإنترنت، كانت تقدم كخدمة مجانية، فالشركات كانت تريد تشجيع الناس على استخدامها تمهيدا لتحويلها إلى خدمة تعود بالمال على شركات الإنترنت. وما أن اعتاد الكثير من الناس على استخدام الإنترنت، بدأت شركاتها تسحب الخدمة المجانية، وتستبدلها باشتراك سنوي، مع إغراءات من قبيل سرعة كبيرة، واستخدام بلا قيود وخاصة بالنسبة إلى تنزيل المواد من المواقع أو تحميلها.

ما أود قوله من الأمثلة أعلاه هو أن التكنولوجيا، ممثلة بالحاسوب المشبوك بالإنترنت، خلقت واقعا جديدا، ربما أهم مميزاته أن كل إنسان أصبح قادرا على التعبير عن رأيه ونشره على الملأ، وهذا لم يكن ممكنا قبل عصر الإنترنت. هنا المدخل لفهم الأزمة التي واجهتها وسائل الإعلام المختلفة، وخاصة المطبوعة، وأدت إلى نشوء ظاهرة التوقف عن النشر الورقي والاكتفاء بالنشر على موقع إلكتروني.

ولكن تأثير الوسائل البديلة للمعلومات، مثل الفيديوهات التي ينشرها أفراد في يوتيوب، أظهرت أيضا أن المحطات التلفزيونية تأثرت نتيجة الواقع الجديد، وخاصة لناحية المقدرة على التأثير على الرأي العام. وخير مثال على ذلك حدث لا يزال طازجا، وهو انتخابات الرئاسة الأميركية التي فاز فيها دونالد ترمب.

أخطأت الشبكات التلفزيونية الأميركية، ومعها صحف قديمة وراسخة مثل «نيويورك تايمز»، في تنبؤاتها بأن دونالد ترمب لن يفوز في انتخابات الرئاسة الأميركية. فشلت وسائل الإعلام الأميركية مرتين. الأولى متعلقة بالتنبؤات بشأن من سيفوز في الانتخابات، وهي كانت خاطئة إلى حد مخجل، لأنها تحدثت عن استحالة انتخاب ترمب، وقدمت التنبؤات على أساس أنها علم يحسب نسبة النجاح بدقة.

الجانب الثاني من الفشل كان المتعلق بالإخفاق الذريع في تعبئة الرأي العام الأميركي ضد ترمب رغم القصف المركز والشديد عليه، واستغلال كل خطأ ارتكبه أثناء الحملة الانتخابية أو قبل سنوات من خوض ترمب السباق للحصول على ترشيح الحزب الجمهوري. أكثر من عام من التعبئة ضد ترمب لم تفلح في إنجاح هيلاري كلنتون، بل فاز ترمب رغم كل ما قيل عنه من سلبيات.

فوز ترمب كان مفاجئا فقط لمن لم يكلف نفسه عناء الاطلاع على وجهات نظر مختلفة، وهذه كانت متوفرة في فيديوهات على يوتيوب. كثيرون كانوا ينشرون فيديوهات مؤيدة لترمب رغم كل ما كان يقال عنه، وبعضهم كان يتنبأ بفوزه. غير مستبعد طبعا أن تنبؤات البعض بفوز ترمب لم تكن علما أيضا، وجاءت متطابقة مع الواقع بالصدفة. لكن بعض المتنبئين استندوا إلى أدلة لم يسلط الضوء عليها كثيرا، فبعضهم كان يذهب إلى المهرجانات الانتخابية التي تقام لترمب، ويشاهد أعدادا غفيرة من الناس، بعكس ما كان يحدث في حالة

المرشحة هيلاري كلنتون، التي نشر مؤيدو ترمب في فيديوهاتهم الشخصية غسيلها الوسخ، بخلاف وسائل الإعلام الكبرى التي كانت تركز على خبرتها وأهليتها للرئاسة.

وقد أثبتت تجربة الاستفتاء على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي أن النشطاء الذين يتابعون الحملات الانتخابية على أرض الواقع، بالسفر إلى المدن المختلفة وحضور المهرجانات، يكون توقعهم للنتيجة أدق مما يقال في وسائل الإعلام، فالاعتقاد الشائع كان أن نتيجة الاستفتاء ستكون متقاربة، ولكن لصالح البقاء، في حين أن صحفيا وناشطا مثل أوين جونز، كان تنبأ بالنتيجة لصالح الخروج في فيديو نشره قبل أيام من بدء التصويت على الخروج أو البقاء.

أعلاه أمثلة على أن وسائل الإعلام كما عرفناها في الماضي تواجه واقعا جديدا، فهي أولا تواجه تحديات مالية بدأت بنقص المبيعات والدخل من الإعلانات إلى حد أجبر بعض المجلات والصحف على التوقف عن النشر ورقيا. والتحدي الثاني هو فقدان المقدرة على التأثير على الرأي العام كما كانت تفعل في الماضي.

هذا الواقع الجديد لا يميز بين وسيلة إعلامية تصدر في الولايات المتحدة، أو في أي مكان آخر من العالم، ومثلما اضطر صحفا إلى التوقف عن النشر في الولايات المتحدة وبريطانيا، على سبيل المثال، لا عجب أن يؤدي إلى حالة مشابهة في الدول العربية. ولكن بالنسبة لوسائل الإعلام في العالم العربي، هناك ظروف خاصة بالمنطقة لا بد من التسليط عليها، وإلا لكان تشخيص الوضع قاصرا.

وسائل الإعلام في الدول العربية معظمها وسائل إعلام رسمية، ولذا هي تتلقى تمويلها من الدولة لأنها جزء من مؤسسات النظام وناطقة باسمه. هذه الوسائل لن تتأثر كثيرا. قد يطلب منها خفض النفقات، ولكن وجودها غير مهدد نتيجة الأزمة المالية التي تواجه غيرها. بعد شيء من الانفتاح في العالم العربي ظهرت صحف يشارك فيها أو يملكها القطاع الخاص، وفي هذه الأيام توجد قنوات تلفزيونية خاصة. الوسيلة الإعلامية التي يملكها القطاع الخاص لا تستطيع الاستمرار بدون مصدر دخل، والمصدر الأهم هو الإعلانات.

عندما كانت الصحيفة تباع بخمسين فلسا، أو ما يعادلها من العملات في الدول العربية، كانت كلفة إصدار النسخة الواحدة أكبر من هذا المبلغ الضئيل.

لكن دخل الجهة الناشرة من الإعلانات كان يمكّنها من بيع الصحيفة بخمسين فلسا، لأن دخلها ليس معتمدا على بيع مئة ألف نسخة مثلا بخمسين فلسا للنسخة.

المصدر الآخر للتمكن من النشر والاستمرار في الصدور هو الدعم المالي من جهة ما، كأن تتلقى هذه الصحيفة أو تلك، دعما ماليا من نظام عربي يختار الصحف التي يريد دعمها لاستعدادها للتناغم مع خطابه السياسي والأيديولوجي، إما من منطلق أيديولوجي مشترك أو مصلحي محض.

الصحف العربية في البداية تفادت النشر على الإنترنت ظنا منها أن ذلك يؤثر على المبيعات، وإذا بها تكتشف بعد فترة أنها إذا لم تستخدم الإنترنت، فسوف تكون فترة احتضارها قصيرة. ولذا أسست كل صحيفة موقعا، وصارت تستخدم الإعلانات في مواقعها أيضا، بل وصل استخدام الإعلانات إلى حد مزعج، فأحيانا تذهب إلى موقع صحيفة وبدل أن تفتح لك الصفحة الأولى يظهر لك إعلان لا يمكن إغلاقه إلا بعد مرور عدد من الثواني.

قد يكون الإعلان في الموقع الإلكتروني مفيدا في حل الأزمة المالية لوسيلة إعلامية ما، كصحيفة مثلا. لم أطلع على إحصائيات تمكنني من تناول هذا الجانب بشكل أفضل. ولكن وسائل الإعلام ليست صحفا فقط. فماذا عن قناة تلفزيونية؟

لا أظن أن قناة تلفزيونية تستطيع الاعتماد على إعلانات في موقعها على الإنترنت لتواصل البث، فكلفة البث التلفزيوني أكبر بكثير من كلفة البث الإذاعي وإصدار الصحف والمجلات. لذلك، يجب أن يكون الدخل من خلال إعلانات تبثها القناة على شاشاتها، وإذا لم يكن الدخل من هذه كافيا، فلا بد من مصدر آخر. الأرجح أن الدعم سيكون من جهة ما، ثري أو نظام.

تستطيع الحكومات العربية أن تغلق مصادر الدخل الآتي من الإعلانات، كما حدث للصحف الأسبوعية في الأردن ومنها صحيفة «المجد» (انظر/ي مقالة فهد الريماوي حول قرار توقف صحيفة «المجد» عن النشر). ورغم محاولة الاستمرار في النشر بإصدارها كل أسبوعين، إلى أنها لم تقو في نهاية المطاف على الاستمرار. وكان يمكن لها أن تقصر فترة المعاناة لو أنها اعتمدت على النشر الإلكتروني فقط، ولو فعلت ذلك لاستبقت الآثار السلبية لنضوب الدخل الآتي من الإعلانات في النسخة الورقية، وواكبت العصر مبكرا في الوقت نفسه.

من الأمثلة الأخرى مجلة «الآداب» التي أرى أنها تأخرت في الاعتماد الأكبر (إن لم نقل الكلي) على الإنترنت، فهي أيضا لم تتمكن من مواصلة الصدور شهريا، ولم يكن ممكنا إرسال اشتراك في النسخة الورقية إلا بالطريقة التقليدية، أي تحويل مبلغ عن طريق البنك. وبدل التوقف الكلي عن النشر الورقي، واصلته بنشر المجلة مرة كل شهرين أو ثلاثة. ولكن ذلك لم يكن كافيا، فأعلنت التوقف عن الصدور في مطلع 2013.

خلال فترة توقف «الآداب»، أعادت النظر في استراتيجيتها، وقررت العودة إلى النشر إلكترونيا في تشرين الثاني (نوفمبر) 2015. وعندما عادت، زاد عدد قراءها خمسة عشر ضعفا كما يقول رئيس تحريرها سماح إدريس على صفحته في فيسبوك.

بالنسبة إلى تجربة «عود الند»، فقد صدرت في عام 2006، في وقت كانت وجهة النظر التي تعتبر النشر الورقي هو الأصل، والإلكتروني ثانوي، قوية. ولكن كان واضحا لي في ذلك الحين أن هذه النظرة رومانسية أكثر منها واقعية، فحتى لو توفرت المقدرة المالية على تمويل مشروع نشر ورقي، من غير المعقول البدء به في زمن يشهد مرور الصحف والمجلات بأزمات تجبرها على التوقف.

وسنة بعد سنة، تبين أن الرهان على الوسيلة الإلكترونية رهان رابح، ومكّن المجلة من الاستمرار في الصدور أحد عشر عاما حتى الآن تم خلالها تطبيق معايير الجودة التي تعرف بها المجلات الورقية الرصينة، ولم تسر على النهج الذي أساء إلى سمعة النشر الإلكتروني، لأن أكثره يعتمد على النسخ واللصق.

سلطت الضوء أعلاه على أحد ظروف النشر في الدول العربية، وأقصد كون الصحف رسمية، أو قادرة على النشر بسبب الدخل من الإعلانات، أو مدعومة ماليا، جزئيا أو كليا، من جهة ما محلية أو خارجية. ولا يزال هناك ظرف آخر يجب التعرض له بالتحليل.

لكي أظل في سياق أثر الدعم المالي، هناك نقطتان أود الإشارة إليهما، أولهما: هل هناك مصدر دعم مالي أفضل من غيره؟

خياري المفضل أن تكون الوسيلة الإعلامية مستقلة تماما، ولا تتلقى الدعم المالي من أحد، فالدعم المالي يؤثر على القرار التحريري. مارست

خياري في إصدار «عود الند»، فهي مجلة لا تتلقى تمويلا من أحد، وخالية من الإعلانات منذ صدورها. ولأنها مشروع صغير، لم يكن صدوره أو استمراره بحاجة إلى دعم مالي. وفضلت عدم التوسع في المشروع، لأن فعل ذلك سيدفعه إلى البحث عن مصادر تمويل.

ولكن لنضع خياري المفضل جانبا، ونناقش الأمر من زاوية نظرية أوسع.

قد تكون صحيفة ما ممولة من ثري أو نظام (لا أتحدث عن الصحف الرسمية أو شبه الرسمية)، ولكن قراءها لا يمانعون ذلك، لأن صدور الصحيفة أفضل من عدم وجودها، ويعتبرون الأمر مقبولا طالما أن الصحف الأخرى تتلقى أيضا تمويلا من جهة ما.

الجمهور لا يعتبر كل مصادر التمويل سواسية. في الستينيات ظهرت مجلة أدبية اسمها «حوار» وكان رئيس تحريرها الشاعر الفلسطيني توفيق صايغ. تبين أن المجلة تتلقى تمويلا من «منظمة حرية الثقافة العالمية»، التي كانت تتلقى بدورها تمويلا من وكالة المخابرات الأميركية، سي آي أيه. نتيجة لذلك تعرضت «حوار» لانتقادات، ومنعت من دخول مصر.

مصدر تمويل «حوار» لم يكن مقبولا لدى قطاعات واسعة من الجماهير في ذلك الحين، وسبب حرجا لرئيس التحرير أدى إلى استقالته، وتوقفت المجلة عن الصدور في عام 1967.

المسألة الثانية التي تحتاج إلى تحليل هي: هل تمويل دولة عربية خليجية لصحيفة «النهار» اللبنانية لا غبار عليه، وتمويل العراق أو ليبيا لصحيفة «السفير» غير جائز؟ الأفضل طبعا أن تكون «النهار» و»السفير» (كأمثلة على بقية الصحف) مستقلتين تماما.

ولكن دعونا نأخذ مثالا واقعيا، وغايته التوسع في التحليل، وعدم نسيان الواقع عند تشخيص الأمور.

في بعض الأحيان يحتدم التنافس بين التيارات السياسية والأيديولوجية، ولا يعقل في هذه الحالة أن يكون التمويل لتيار تؤيده مقبول، ومشين للتيار السياسي الذي تعارضه.

هناك مثال يوضح النقطة أعلاه بشكل أفضل. أثناء الغزو الإسرائيلي للبنان وحصار بيروت عام 1982 لعبت صحيفة «السفير» دورا مهما في

الصمود ورفع المعنويات. في وضع مهم كهذا، يكون من السذاجة أن يعاب على «السفير» تلقي دعم من منظمة التحرير الفلسطينية أو غيرها للتمكن من الاستمرار في الصدور في هذه الفترة الحرجة، وتجاهل الدور المهم الذي تقوم به الصحيفة في رفع المعنويات وتعزيز الصمود.

وفيما يتعلق بدور المال في الإعلام، يجب ألا ننسى أيضا أن بعض المشاريع الإعلامية تكون وسيلة للاسترزاق، ففتح صحيفة لها مكاتب وتوظف محررين ومراسلين لا يمكن لشخص كان موظفا في مؤسسة إعلامية، مهما كان راتبه فيها، أن يتمكن من تحمل التكاليف المالية لمشروعه الإعلامي الجديد.

من المؤكد منطقيا أن هذا المشروع لا يولد ويعيش بالاعتماد على دخل أو مدخرات مؤسس المشروع. ولا يقدم أو يؤخر شيئا وصف المشروع الإعلامي بأنه «مستقل» لأن الاستقلال ليس مجرد كلمة تكتب في مكان بارز من الصحفية أو موقعها، بل حالة تدعمها الأرقام الواردة في كشوف الحسابات المصرفية والموازنات.

وبالنسبة إلى مصادر التمويل من أنظمة، اختفى من الخريطة السياسية نظامان كانا يدعمان الصحف ذات التوجهات القومية واليسارية، هما النظامان العراقي والليبي، فرئيس الأول، صدام حسين، أطيح به عند غزو العراق في عام 2003، ورئيس الثاني، معمر القذافي، أطيح به بمساعدة حلف شمال الأطلسي في عام 2011.

إضافة إلى ذلك، لم تعد الدول الخليجية تكتفي بتقديم الدعم المالي لصحف تصدر في دول عربية أخرى، بل صارت تؤسس صحفا وقنوات تلفزيونية ومواقع، عائدها المعنوي (وربما المادي) أكبر من العائد من تقديم دعم مالي لصحف أو مجلات عربية إما تجنبا لتوجيه الانتقادات إليها، أو سعيا لشراء المديح والولاء.

رغم أن تغير الخريطة السياسية العربية عمّق الأزمة المالية للصحف القليلة التي عرفت بخطها القومي أو اليساري، إلا أنني أرى أن الدعم المالي من العراق أو ليبيا أو أي نظام ما كان ليحل المشكلة الأهم التي واجهت الصحف العربية في عصر الإنترنت، وهي المقدرة على التأثير كما كانت تفعل في الماضي، لأن البيئة التي تعمل فيها تغيرت كثيرا، وما كان يصلح في العصر الذي خلا من الإنترنت، لم يعد صالحا في عصر الإنترنت.

على سبيل المثال، عندما بدأت الصحف تنشر على الإنترنت وتتيح المجال للتعليق على ما ينشر فيها، كثيرا ما يجد القارئ في التعليقات ردودا تصحح خطأ، أو تعبر عن رأي بديل، وهكذا لم يعد الكاتب كالأستاذ الذي يلقي المحاضرة، ويلتزم التلاميذ الصمت.

من أهم مشكلات الصحف القومية واليسارية قبل سنوات من قرار توقفها عن النشر أنها لم تهتم بتعدد الآراء التي تنشر فيها. حتى التي لا تزال مستمرة في الصدور، كصحيفة «الأخبار»، لا تجد فيها تنوعا في الآراء، بل تجد فيها صفحة رأي فقيرة.

هذه الصحف ظلت متمسكة بالأسلوب السابق الذي لا يسمح بنشر آراء مختلفة لأشخاص ليسوا غرباء عن دعم المقاومة مثلا، ولكن لهم وجهة نظر لا تتطابق مع الخط السياسي والأيديولوجي للصحيفة. نتيجةُ ذلك ليس فقط صحفا لا تقرأ خارج نطاق مؤيدي الخط الذي تسير عليه الصحيفة، بل هو أيضا مؤشر على جمود فكري، يظن مؤيدوه في مرحلة ما أنهم وحدهم قابضون على جمر دعم المقاومة والتصدي للناهب الدولي، وغيرهم على باطل.

وهكذا تلحق وسيلة الإعلام المتمسكة بهذا الأسلوب الضرر بنفسها، وتفقد الكثير من القدرة على التأثير. من الممكن دعم المقاومة والتصدي للناهب الدولي دون كتم الأنفاس وتكميم الأفواه. ولا يضر قضية تراها عادلة أكثر من صم الآذان عن الاستماع إلى أراء مختلفة بشأن أفضل الوسائل لدعمها وتحقيق أهدافها.

هل ستختفي الصحف الورقية والشبكات التلفزيونية؟ لا أتوقع ذلك، فهناك اعتبارات أخرى. الصحف الرسمية في الدول النامية كانت في الماضي تصدر بصرف النظر عن عدد القراء، فهي لها ميزانية تمكنها من إصدار عدد معين من النسخ، وما يكفي من الموظفين. لن يختلف الوضع كثيرا بالنسبة إلى هذه الصحف، فقد يطلب منها خفض النفقات، أو إعادة هيكلة نفسها، ولكنها تستمر في الصدور.

وإخفاق الإعلام في التأثير على الجمهور في بعض الحالات لا يعني أنه لم يعد له تأثير بالمطلق، ففقدان التأثير ليس كاملا ودائما، وحالات الإخفاق في التأثير يكون وراءها عوامل أخرى يتجاهلها الإعلام مثل الغضب الجماهيري

على الوضع الاقتصادي، وعدم اعتراف المسؤولين بالمشكلة أو بمشروعية هذا الغضب.

والمنابر الإعلامية البديلة (فيسبوك وتويتر ويوتيوب وغيرها) ليست خارج الجدل المتعلق بحرية التعبير، وطالما أن الفرد ينشر في موقع لا يملكه، فهو دائما تحت رحمة مالك الموقع، الذي يمكنه أن يغلق الصفحات، أو يسهل انتشار ما يريد أن يعطيه فرصة أكبر للظهور. ولكنها لا تزال توفر حتى الآن متنفسا مهما للتعبير عن وجهات نظر بديلة.

ولا بد من الإشارة إلى أن التعبير عن رأي مختلف في وسائل الإعلام الاجتماعي لا يعاقب عليه في الدول التي تضمن للمواطنين حريات أساسية، في حين أن التعبير عن الرأي فيها يعاقب عليه في الدول العربية لأن السلطات الحاكمة لا تزال لديها مشكلة كبرى مع الحريات الأساسية، وخاصة حرية التعبير.

جابر سليمان

«السفير»: مذاق قهوة الصباح



ما عاد لقهوة الصباح مذاقها المعتاد منذ أن هوت نجمة «السفير»، فجأة، في مطلع العام 2017 من سماء الصحافة العربية الملتزمة بقضايا الأوطان والناس البسطاء والمقهورين الذين منحتهم صوتها.

اعتدنا قراءة «السفير» مع قهوة الصباح طوال 43 عاما حتى أصبحت جزءا من طقوسنا اليومية، التي نبتدأ بها نهاراتنا قبل الانصراف إلى مشاغل العمل والحياة. لم تخذلنا «السفير» ولا مرة، حتى في أشد اللحظات قسوة، التي كان الموت ينشر فيها أجنحته الفولاذية فوق سماء بيروت إبان حصار الآلة الحربية الإسرائيلية الهمجي والمجنون لبيروت الجميلة عام 1982.

ركنا على موعد دائم مع حمامة «السفير» البرتقالية، التي ابتدعها الفنان المصري الموهوب حلمي التوني لتنقل إلينا وقائع الصمود والبطولة لأهل بيروت وناسها الطيبين ولمقاوميها الأبطال لبنانيين وفلسطينيين، كما كنا على موعد حميم مع «حنظلة»، فتى ناجي العلي البسيط، ولكن البليغ في علم السياسة والاجتماع البشري، والذي كان ببساطته وإيجازه وبعد نظره الثاقب يغنينا عن أكوام من التحاليل والتقارير التي كانت تضج بها وسائل الإعلام التي واكبت تلك الحرب على امتداد العالم.

من عاش تجربة حصار بيروت لا يمكن أن تمحى من ذاكرته أهوال ذلك اليوم الرهيب من شهر آب (أغسطس) عام 1982، يوم جُنّت الآلة العسكرية

جرّاء صمود بيروت وأهلها ومقاتليها، فصبت حممها من الجو والبر والبحر بشكل عشوائي ومتواصل على المدينة طوال النهار والليل، حتى خيّل إلينا أن بيروت الجميلة قد دمرّت بالكامل وأصبحت أثرا بعد عين.

ولكن في صباح اليوم التالي خرجت «السفير» وعلى صفحتها الأولى كاريكاتير ناجي العلي يصور بيروت فتاة بهية مليحة بجدائل طويلة تطل بوجهها الجميل من كوّة في جدار بناء مدمر، فيخاطبها حنظلة قائلا: «صباح الخير يا بيروت» وهو يقدم إليها وردة. هذا الكاريكاتير الشهير عبّر بشكل مدهش وبليغ في آن عن روح المقاومة لدى أهل المدينة. وفي بلاغة كاريكاتير ناجي العلي يقول طلال سلمان: «كثيرا ما مزقت افتتاحيتي بعد مشاهدة لوحات ناجي العلي، التي كان يلخص ما أردت قوله بخطين أو ثلاثة».

بعد مشاورات معمقة مع العديد من الكتاب والصحافيين والفنانين وأصحاب الرأي العرب جرت في العام 1973 ولدت «السفير»، وصدر العدد الأول منها في 1974/3/26. كانت ولادة «السفير» طبيعية للغاية، وفي وقتها تماما، حيث جاءت في أعقاب حرب تشرين 1973 البطولية، التي أعادت الاعتبار، لصورة المقاتل العربي بعد عار هزيمة 1967، كما تزامنت مع تزايد الاعتراف الدولي بالحركة الوطنية الفلسطينية، الذي توج في العام 1975 بالاعتراف بمنظمة التحرير عضوا مراقبا في الأمم المتحدة.

كما جاءت تلك الولادة في أعقاب تشكيل «الجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية» (أواخر العام 1972) بقيادة الشهيد كمال جنبلاط، وترافقت ولادة «السفير»، كذلك، مع تجمع نذر الحرب الأهلية في سماء لبنان وبروز إرهاصاتها الأولى، وبالتالي نشوء الحركة الوطنية اللبنانية المساندة للثورة الفلسطينية في وجه نزعات «الانعزالية اللبنانية».

وبذلك واكبت «السفير» الحرب الأهلية بكل مراراتها ووحشيتها. وكانت الصوت الصادق المعبر عن طموحات الحركة الوطنية اللبنانية في ولادة لبنان عربي ديموقراطي يحقق العدالة الاجتماعية لكل اللبنانيين، من دون استثناء، ويرتبط بقضايا الأمة العربية، وفي المقدمة منها القضية الفلسطينية.
وفوق ذلك كله، جاءت ولادة «السفير» في ذروة نمو المؤسسات الثقافية

والفنية والإعلامية والبحثية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وخاصة مركز الأبحاث ومركز التخطيط، حيث استقطب هذان المركزان أبرز الباحثين والكتاب والمفكرين العرب اليساريين الذين وجدوا في الثورة الفلسطينية ومؤسساتها ومناخ الانفتاح الذي أشتهر به لبنان ملاذا آمنا للهروب من قمع الأنظمة العربية. وكان مركز الأبحاث مركزا عربيا بامتياز، وكذلك كانت مجلة «شؤون فلسطينية». وهذا ما تدل عليه إصدارات المركز وأسماء كتاب المجلة.

وقد أغنى هؤلاء الكتاب والمفكرون العرب الذين التحقوا بالمؤسسات الإعلامية والثقافية والبحثية الفلسطينية تجربة الصحافة اللبنانية بشكل عام، ومنها تجربة «السفير». وفي هذا الصدد تحضرني شهادة فريدة أسرّ بها عميد الصحافة اللبنانية، الراحل غسان تويني، لدى استضافته من قبل» الملتقى الفلسطيني» الذي كان يديره الدكتور أنيس صايغ، وهو ملتقى كان يحضره عدد محدود من الأكاديميين والمفكرين والكتاب ورجال الأعمال الفلسطينيين، ولا تنشر مداولاته. يومها قال غسان تويني: «بعد العام 1982 فقدت الصحافة اللبنانية نكهتها الفلسطينية». والمقصود النكهة الثقافية والفكرية العربية التي أضفتها الثورة الفلسطينية على الحياة الثقافية في لبنان.

ننبتت «السفير» في هذه التربة الوطنية والقومية الخصبة المتفاعلة مع الثورة الفلسطينية، وتغذت من الحلم الثوري الواعد الذي ميّز مرحلة الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. كانت «السفير»، ومن دون أية مبالغة، جريدة فلسطين في لبنان بقدر ما هي جريدة لبنان وجريدة العرب.

وفي واقع الحال كانت هناك ضرورة لظهور صحيفة من نمط «السفير» تشكل منبرا للدفاع عن القضية الفلسطينية، وخاصة بعد أن توقفت صحيفة المحرر وملحقها «فلسطيننا» عن الصدور. وكان صاحب تلك الصحيفة هشام أبو ظهر، كما من رؤساء تحريرها غسان كنفاني، ومن فرسان الكلمة فيها الأستاذ شفيق الحوت.

وكما المحرر، أصدرت «السفير» أيضا «ملحق فلسطين». وصدر العدد الأول منه في الذكرى الثانية والستين للنكبة (2010/5/14). ومما قاله طلال سلمان في افتتاحية العدد الأول من الملحق: «هذا الملحق لفلسطين مطهرة من

السلطة والسلطات المضادة، لفلسطين الغد. ومحرروه هم الفلسطينيون جميعا، أي العرب كلهم».

واكبت «السفير» مسيرة الثورة الفلسطينية في لبنان قبل العام 1982 وبعده. وعلى سبيل التذكار غطت «السفير» لحظة بلحظة حصار مخيم تل الزعتر وسقوطه بأيدي الميليشيات اللبنانية اليمينية. وكان عنوان صفحتها الأولى في (1976/8/12) «المجد لصمودك يا تل الزعتر». كما كتب جورج ناصيف في العدد نفسه يقول: «يا تل الزعتر، يا عريسنا، يا زين الشباب، ما سقطت، ما سقطت، ولكن نادتك فلسطين فارتحلت عاشقا».

وكانت «السفير» الصوت الأقوى والأكثر جرأة في الدفاع عن كرامة الشعب الفلسطيني وحقوقه في أشد الفترات قسوة وقتامة، في مرحلة ما بعد خروج منظمة الحرير الفلسطينية من لبنان عام 1982 والاستفراد بالشعب الفلسطيني، أي فترة الاحتلال الإسرائيلي لبيروت، ومجازر صبرا وشاتيلا، وتوقيع اتفاق 17 أيار 1983 وما رافقه من قمع مخابراتي للفلسطينيين، إلى آخره.

مع إدراكنا لأزمة الصحافة الورقية وتفاقمها في أكثر من بلد، ومع وجود سوابق على ذلك تتعلق بأهم الصحف العالمية، لم نصدق، أو بالأحرى لم نرد أن نصدق، الإشارات والرسائل الأولى التي بعث بها طلال سلمان، صاحب «السفير»، عن إمكانية توقفها عن الصدور. وكنا نأمل أن تتجاوز «السفير» أزمتها المالية إلى أن جاء الخبر اليقين والصاعق.

ولكن نصري صايغ، وهو جزء أصيل من ذاكرة «السفير» وذاكرة الصحافة اللبنانية، يضع المسألة في إطار أزمة المجتمع والنظام السياسي الاجتماعي اللبناني، إذ يقول: «المسألة المالية نتيجة لا سبب. أزمات الصحافة مع التمويل والدعم مزمنة، هذه المرة المسألة مختلفة. نضوب المال، ونضوب القراء ونضوب الإعلان، متأتٍ من نضوب الوطن ونضوب المؤسسات ونضوب الأحزاب ونضوب النقابات ونضوب الأحياء، وهم أموات يرزقون».

وفيما يتعدى الواقع اللبناني، يصح القول أيضا أن المسألة المالية هي نتيجة وليست سببا لأزمة الصحافة الورقية عبر العالم، نتيجة لعوامل عدة تقع في صلبها الثورة التكنولوجية وثورة المعلومات، وما رافقهما من تطور

مدهش ومتسارع لوسائل التواصل الاجتماعي، دون أن نغفل، الأسباب المتعلقة بأزمة الرأسمالية العالمية، واقتصاد السوق، والهندسات المالية التي تفرضها المؤسسات المالية الدولية على اقتصاديات الدول الفقيرة والأقل نموا.

وفي نهاية المطاف، «كان ما سوف يكون». أفل نجم «السفير» بعد أن سطع ورافق حياتنا بحلوها ومرّها، لما يزيد عن أربعة عقود، فصدر العدد الأخير من «السفير» (2017/1/4) في ستين صفحة ليوثق مسيرة «السفير» الرائدة في الدفاع عن قضايا الناس في لبنان وفلسطين وفي كل الوطن العربي. وكان ذلك بمثابة رسالة الوداع الأخير: «لا «سفير» بعد اليوم مع قهوة الصباح».



فهد الريماوي

لماذا توقفت «المجد» عن الصدور؟

«المجد» تلوح لجمهورها بمناديل الوداع
وتترك للجيل القادم التقاط رايتها واستكمال رسالتها



بغير دموع ولا مراسم تشييع ولا مناديل وداع، ترحل «المجد» هذا اليوم إلى غياهب الصمت.. تجمع حروفها، وتلملم أوراقها، وتحزم حقيبة عمرها ودورها، ثم تسافر على جناح الأسى والأسف إلى دارة المنتهى، وشاطئ الغياب والاحتجاب، «ولحد» الرجوع الأخير.

لقد حُم القضاء وانقطع الرجاء ووقع الفراق الأبدي.. فها هي «المجد» تقرأ في سورة «الغربة»، وتتجلد في مواجهة الخطب الجلل، وتغالب دمعة قبل أن تنسكب، وتمخر عباب رحلة بلا عودة، وذهاب بغير إياب، وانزواء ليس بعده من لقاء.

ما عاد في اليد حيلة، ولا في الوسع أي تدبير.. فقد سدت في وجه هذا المنبر القومي كل السبل، وانفض من حوله جل الأصدقاء، واجتمع عليه لفيف كثيف من الخصوم والأعداء، ومال عنه رهط من القراء المتعجلين الذين أغوتهم واستهوتهم صرعة التغريدة الزغرودة، وصحافة الوجبات السريعة، وثقافة الحشائش السطحية النابتة على صفحات التويتر والفيسبوك والانستغرام والواتس اب.. الخ.

يا وحدنا.. صرخة تائهة بلا صدى وسط هذه الغابة العربية الموحشة والمتوحشة، والضاربة في فيافي الفتنة، والشاربة من نهر الجنون، والمتهاوية

دولة بعد أخرى .. فلم يعد فيها قيمة للعقل، ولا أهمية للخلق، ولا مكانة للضمير، ولا محل من الإعراب للخطاب الوطني والقومي، ولا متسع للكلمة الحرة والقلم الناقد والصحافة الأمينة والرصينة التي طالما جرى اعتبارها سلطة رابعة، وشريكا رئيسيا في قيادة الرأي العام.

الصحافة —في مفهومنا الكلاسيكي— روح ابداعية وطليعية لا تسكن إلا الورق، ولا تنهل إلا الحبر، ولا تعانق إلا القلم، ولا تولد إلا من رحم المطبعة، ولا تفتح للقارئ صفحاتها وتمنح أخبارها وأسرارها، إلا في حضرة القهوة المنعشة، ورفقة الصباح الباسم.. أما الإذاعات والفضائيات والمواقع الإلكترونية وأخواتها، فليست صحافة حتى لو شُبه لها، بل هي جنس آخر من أجناس دولة الإعلام، وفصيل مختلف من فصائلها.. ومن هنا جاء إصرارنا على استمرار صدور «المجد» في حلتها الورقية الملونة الباهظة التكاليف، حتى الرمق الأخير واليوم الأخير والدينار الأخير، رغم أن لديها موقعها الإلكتروني المعروف منذ جملة أعوام.

وليست الصحافة محض أوراق مطبوعة، أو نشرات دورية، أو إصدارات مسطرة ومصورة، بل هي معنى بأكثر مما هي مبنى، ومضمون بأكثر مما هي كيان، ورسالة بأكثر مما هي مهنة، ومسؤولية بأكثر مما هي وجاهة ومنفعة ونجومية.. ولعل من البديهي والمعروف منذ قديم الزمان، أن للصحافة في نفوس أهلها الأصلاء، وليس الدخلاء، مكانة عظيمة تقترب من القداسة، ومودة غامرة تبلغ حد العشق، وانتماء مخلصا ومتينا يرقى إلى مستوى التعصب الشوفيني.. وقد كان أستاذ الأجيال الصحفية العربية، المرحوم محمد حسنين هيكل يباهي بأنه «جورنالجي»، ويفاخر بالانتماء إلى قبيلة الصحافة، ويجاهر برفض كل ما عداها من القبائل والقوافل والمناصب والمراتب.

بدافع الفطرة الأدبية والموهبة الكتابية، والانبهار بالكلمة المطبوعة المتعربشة على أكتاف الجرائد والمجلات، وقع اختياري —بل إصراري— على دراسة الصحافة بكلية آداب جامعة القاهرة، بعدما فتح جمال عبد الناصر أبواب «مجانية التعليم» في مصر أمام سائر أبناء الوطن العربي.. ورغم تخرجي في الجامعة عام 1965، إلا أنني لم أتخرج، بالمقابل، من مدرسة الصحافة المصرية النجيبة التي كانت يومذاك رائدة وقائدة لمسارات الإعلام

العربي والآسيوي والأفريقي كافة، فيما كان أقطابها وأعلامها وفرسانها محل اهتمام واحترام المحافل والدوائر العالمية المعنية.

من وحي تلك المدرسة الصحفية الطليعية، ومرحلتها النهضوية الساطعة، وروحها الناصرية العنفوانية، تطوعنا لإصدار «المجد» في ربيع عام 1994، بمجرد أن لاحت الفرصة المواتية، بعدما تحطمت قيود وأصفاد الحقبة العرفية التي صفّدت وصادرت الحياة السياسية الأردنية لما يناهز ثلث قرن، حيث امكن لنا تحويل الحلم القديم إلى واقع رائع، وإحياء المستطاع من تراث الصحافة الأصيلة، وتشييد صرح إعلامي قليل الإمكانات، ولكنه شديد البأس في منازلة ومغالبة مرحلة كاملة من السقوط العربي على أيدي فقهاء الظلام وسفهاء الاستسلام على حد سواء.

طوال عمرها الذي نيّف عن الاثنين والعشرين عاما، ظلت «المجد» صحيفة مبدأ وموقف والتزام، بأكثر مما هي منصة أخبار ومقالات وتحقيقات.. فهي صاحبة رسالة قومية، وحاملة مسؤولية وطنية، وراعية خط تقدمي وتنويري، وداعية نضال ونزال وكفاح مسلح ضد إسرائيل، وحليفة وثيقة لأقطاب الممانعة والمقاومة في سوريا ولبنان وفلسطين، وقد دفعت لقاء ذلك أثمانا باهظة معروفة للكافة، وتعرضت لسلسلة طويلة من العذابات والملاحقات والعقوبات والإشاعات المختلفة الأنواع والمستويات، ليس على ايدي الدوائر الأمنية والحكومية فحسب، بل الجماعات المتصهينة والمتأخونة والمتخلجنة أيضا، حتى أوشك عدد المتنبهين لقوة حضور «المجد» والمتابعين لها من موقع التربص والعداء يقارب عدد القراء المخلصين والأصدقاء الحميمين.

وبقدر حرص «المجد» على صلابة موقفها، ومبدئية نهجها، وصوابية رؤيتها وبوصلتها، فقد حرصت أيضا اشد الحرص (خلافا لصحافة هذا الزمان التي تتعثر في أغلاطها النحوية والإملائية) على سلامة لغتها، وسلاسة عباراتها، وبلاغة مقالاتها ومفرداتها.. فلطالما صاغت الأدبيات القومية بحروف ناصرية، وعزفت الأناشيد الوطنية بأوتار عروبية —لا إقليمية— واختارت للجملة المفيدة حلة شفافة أنيقة، واستضافت كوكبة من فرسان النصوص المتميزة، ودأبت على المزاوجة بين عمق العقيدة الفكرية وعذوبة القصيدة الشعرية، رغم أن الواقع العربي المضرج بالدم والهم والغم، لا يسر البال ولا ينعش الخاطر ولا يشجع القريحة على التجلي والإبداع.

وعليه، فمن المؤسف حقا وصدقا أن تنطفئ شعلة «المجد» وأمثالها من المنائر والمنابر الصحفية العروبية الهوى والمحتوى، وأن تختفي الأقلام المرهفة والمثقفة والبعيدة النظر، وان يخلو الميدان للصنائع والاتباع ومحاسيب المراكز التكفيرية والرجعية والطغيانية والسلطانية القارونية من جهة.. أو المحافل اليهودية والأمريكية والماسونية والإباحية الباذخة التمويل من جهة أخرى.

صحيح —على وجه الإجمال— أن الصحافة المطبوعة تعاني حاليا جملة مصاعب مالية ومتاعب مهنية في سائر أنحاء العالم، غير أن التمحيص الدقيق والمتأني في هذا الخصوص، يثبت أن الصحف المستقلة والموضوعية والمعتمدة على مواردها الذاتية، هي الرازحة وحدها تحت عبء الاحتياج والمعاناة وضيق ذات اليد.. أما الصحافة التابعة والخانعة والممولة من دول الخليج النفطية بشقيها العربي والإيراني (بدرجة اقل)، فلا خوف عليها ولا من يحزنون، ولا خلاف بينها حول الموقف من الهوية العروبية والوعي القومي والمشروع الوحدوي النهضوي الذي تناهضه إيران —ومثلها تركيا— لدواعي الهيمنة السياسية، بقدر ما تحاربه السعودية وتوابعها لحساب الجاهلية الوهابية.

لو كانت نقابة الصحفيين حاضرة ومؤثرة وقادرة على النهوض بكامل واجباتها، لما غابت عن محنة الصحافة الورقية، ووقفت مكتوفة الأيدي وعاجزة بلا حول ولا طول.. ولو كان مجلس النواب جديرا بصفته التمثيلية وأهلا لمسؤوليات السلطة التشريعية، لما أصم أذنيه وتجاهل استنجاد الصحفيين به، العام الماضي، لحمل الحكومة على معالجة أزمة «السلطة الرابعة» ولو ضمن أدنى الحدود، وبما يشابه دعم الأحزاب السياسية.

أما الحكومات المتعاقبة، وآخرها حكومة الملقي الحالية، فلا أمل فيها ولا نفع للصحافة منها.. فهي في افضل الأحوال محايدة ومتباعدة وتاركة للصحافة أن تقلع شوكها بيديها، أما في اغلب الأوقات والمنعطفات، فهي قمعية وعرفية وشديدة البأس على الصحافة عموما، والأسبوعية المعارضة بشكل خاص، حيث سبق لحكومة عبد السلام المجالي أن فرضت على الصحافة الأسبوعية عام 1997 رفع رأسمالها إلى أرقام شاهقة مما أدى إلى اختفاء عدد من هذه الصحف، في حين فرضت حكومة معروف البخيت على هذه الصحافة

عام 2007 ضريبة مبيعات انتقامية وتعسفية قاتلة ومن خارج القانون، ولكن الحكومة التي خلفتها برئاسة نادر الذهبي سرعان ما شطبت هذا القرار المجحف والمتعسف.

أما الضربة الساحقة الماحقة، فقد سددتها للصحافة المعارضة والوطنية، حكومة سمير الرفاعي حين اقترفت عام 2010 إثم «مدونة السلوك الإعلامي» التي قصمت ظهورنا، ونسفت فرصة استمرارنا، ولجمت الدورة الدموية في عروقنا، وجففت جل مواردنا من إعلانات واشتراكات الدوائر الرسمية والمؤسسات العامة، وقذفت بنا إلى مهاوي العد العكسي الذي أفضى بصحافتنا إلى الإفلاس.. وقد كانت لي مع هذا الرجل جولة عتاب ساخنة، في حضور والده الرئيس زيد الرفاعي، والمحامي المرحوم حسين مجلي، اعترف في نهايتها أنه لم يكن يتوقع أن تؤدي هذه المدونة إلى كل هذه الخسائر والأضرار.

وما دمنا بصدد الحديث عن الموارد والجوانب المالية، فلا بأس في هذا المقام الوداعي المرهف، من إلقاء الضوء على استراتيجية «المجد» التمويلية وتجلياتها الواقعية وآلياتها التنفيذية التي طالما أرهقتنا، واستنزفت معظم جهودنا وربما ماء وجوهنا.. ذلك لأننا كنا قد طرحنا لغرض إصدار «المجد» حرة ومبدئية، شعار : «قليل من كثير»، وهو ما يعني استدراج ما تيسر، ومهما كان قليلا ومحدودا، من التبرعات والإعلانات والاشتراكات التشجيعية، من قبل مروحة واسعة من الأصدقاء والرفاق والأنصار الوطنيين والقوميين والإسلاميين في الأردن وفلسطين وسوريا ولبنان —والناصريين في مصر واليمن— وذلك كي لا نثقل على طرف بعينه، وأيضا كي لا نقع تحت جناح جهة بذاتها، فليس يليق بصحيفة ترفع راية عبد الناصر، الطاعن في التقشف والنزاهة وطهارة اليد، أن تبتذل حروفها بالتكسب والارتزاق.

وامتثالا لأحكام قانون المطبوعات والنشر، والتماسا لتبرئة الذمة أمام التاريخ الصحفي، فقد دأبت «المجد» منذ السنة الأولى لصدورها حتى الوقت الراهن، على تزويد دائرة المطبوعات، ثم وريثتها هيئة الإعلام، بنسخ مدققة حسب الأصول من موازناتها السنوية، وبنسخ مماثلة إلى دائرة الضريبة العامة، ودفع ما يتحقق عليها من ضرائب، ليس وهي رابحة فقط، بل وهي خاسرة تعتاش من جيوبنا أيضا.. وللتحقق من صدق أقوالنا، يستطيع أي باحث متخصص أو حاقد متربص مراجعة أي من هاتين الدائرتين الرسميتين.

ولسوف تبقى آيات الشكر والامتنان والعرفان واجبة علينا إلى عموم أحبائنا وإخواننا وأصدقائنا، الأحياء منهم والراحلين، الذين وقفوا جميعا مع «المجد» بشرف وشجاعة وإخلاص، متطوعين لوجه العروبة وفلسطين، ومتفضلين بغير قيد ولا شرط، ومتبرعين بالمال والمقال والمعلومة والإعلان والاشتراك السنوي والدفاع في المحاكم.. وكم كان بودنا تعطير سطور هذه الكلمة الختامية بأريج أسمائهم الكريمة، لولا رغباتهم الصارمة والحازمة بخلاف ذلك.

أما فرسان كتيبة «المجد» الذين أسهموا بجهد صادق ومثابرة دائبة، لإخراجها من العدم إلى الوجود، ومن العتم إلى الشروق، فلهم كل التحية والوفاء والاحترام، سواء من غادر موقعه مبكرا، أو من ظل صامدا حتى الرمق الأخير.

يقولون إن البجعة تطلق اعذب تغريداتها وأنشوداتها عندما تحس بدنو اجلها، ربما لأنها تحب مغادرة الحياة باسمة لا باكية، ومفعمة بالسكينة والرضا لا بالفزع والجزع.. وليس افضل «للمجد» قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، من استحضار مقولة الثائر الحلبي والرائد القومي العربي، عبد الرحمن الكواكبي التي ما زالت تدوي في أروقة الزمان منذ نيف ومئة سنة : «هي كلمة حق وصرخة في واد، إن ذهبت اليوم مع الريح فلسوف تذهب غدا بالأوتاد».

= = =

مقالة نشرت بتاريخ 26 كانون الأول (ديسمبر) 2016. ويأعيد نشرها هنا بموافقة مسبقة من رئيس تحرير صحيفة «المجد»، فهدر الريماوي.

http://almajd.net/?p=14941

إسراء المنسي

مكتبات بلا زمان



لم يكن غريبا أن يصف الروائي الأمريكي، شيلبي فوت، المكتبات الجامعية قائلا: «إن الكليات الكبيرة والمباني الشاهقة التي تحيط بالمكتبة لم تنشأ إلا لحراستها وتسليتها، فهي المكان الذي تهفو إليه القلوب»، فهي نبض الحرم الجامعي وروحه.

تتفاخر الجامعات الراقية برصد مبالغ سنوية كبيرة من ميزانيتها لتوفر أحدث أوعية المعرفة الإنسانية المنشورة في أشكالها المختلفة، وشتى الخدمات المكتبية والإعلامية والتوثيقية التي من شأنها تيسير الانتفاع بمصادر المعرفة لروادها من طلبة الجامعة وأعضاء هيئة التدريس والمنسوبين والباحثين من خارج الجامعة.

وتهتم المكتبة بتعريف مصادر المعلومات وإتاحة البحث العلمي من خلال خدماتها الإرشادية ودعمها لخدمة الوصول الحر للمعلومات على شبكة الإنترنت والاتصال المباشر بقواعد المعرفة وبنوك المعلومات من أجل وعي معلوماتي بحركة الوصول الحر وآلياتها وتنمية مهارات الإفادة من التقنيات الحديثة لدى المستفيدين.

إن مستوى ومكانة وحجم مكتبة الجامعة وتنوع مصادرها أصبح عامل تسويق للجامعة مميزا لجذب الطلاب والباحثين وأعضاء هيئة التدريس أيضا. لذا لم يكن غريبا أن نسمع عن الحياة في المكتبة الجامعية على مدار 24 ساعة طوال أيام الأسبوع، فمكتبات الغرب الجامعية كانت وما زالت مصدر إلهام آلاف الطلاب الذين حققوا نجاحات لافتة على كافة الأصعدة.

المكتبات هناك ليست مجرد رفوف تنام عليها أمهات الكتب، بل محتويات ومواد تصل إليها وأنت في منزلك عبر صفحاتها الإلكترونية وأماكن واقعية وافتراضية للنقاش والتعارف بين الطلبة، ومستودع معرفي للوصول الحر للدوريات والمجلات المتخصصة والنادر توافرها في أي مكان آخر.

على سبيل المثال، مكتبة بودلين داخل جامعة أكسفورد البريطانية التي تأسست سنة 1602 تضم بين أرجائها أكثر من 11 مليون كتاب تقليدي، ونحو 5 ملايين كتاب إلكتروني، ويعمل فيها نحو 430 موظفا. يقال في بريطانيا إن الباحث الذي لم يزرها أو المكتبات التسع المرتبطة بها ليس باحثا، بسبب أهمية المواد التي تكتنزها. والطريف أنه يتوجب عند زيارتها تلاوة تعهد شفهي بالمحافظة على مقتنياتها وموادها.

إن المكتبات في أوروبا وأميركا (ثقافة) يكتشفها الطفل الصغير في المدرسة، وتكبر معه إلى الجامعة، فيستخدم من خلالها اللغة الرقمية ويبحر في عصر المعلومات وعبر قواعد البيانات المتعددة ليصل لنتائج دقيقة في أبحاثه ويحقق رؤية أعمق في عالم سريع التغيير.

في المقابل ليست الصورة وردية على الإطلاق في عالمنا العربي، كما أنها بالطبع ليست قاتمة، فالجامعات تفتح أبواب مكتباتها يوميا من الصباح وحتى غروب الشمس، مع توفير بعض الخدمات والموارد لمساعدة الباحثين لإتمام الأبحاث العلمية، فقلة من المكتبات الجامعية، وخاصة المكتبات المركزية، صمم على أن يكون مزيجا من رفوف للكتب وقاعات للاطلاع وغرف للاجتماعات وقواعد بيانات.

ولكن أغلبها لا يتيح مرافق أو تسهيلات تجذب الطلاب إلى زيارتها فقط وليس البقاء فيها، فهي مبنية لجمع الكتب بين الرفوف كمخازن، فانخفاض أعداد الكتب في مكتبات الجامعات وتقادمها، وتدهور البنى التحتية للمكتبات، وعدم الوعي بأهمية مشاركة المكتبة كمستودع مؤسسي للإنتاج الفكري الصادر عن الجامعة، أدى إلى نفور الطلاب منها، فصارت مهجورة تعج بالغبار والضجر ولا تثير اهتماماتهم العلمية والبحثية. أضف إلى ذلك، عدم وجود استراتيجية تشجيعية من إدارات الجامعات لاستخدام المكتبة ومرافقها بشكل أكبر.

طلاب يدرسونالحق أن العديد من الجامعات الحكومية في مختلف الدول العربية وفرت خدمة قواعد البيانات داخل مكتباتها، ويمكن التحقق من ذلك

بزيارة المواقع الإلكترونية الرسمية لهذه الجامعات على شبكة الإنترنت، فالقيادات الجامعية تحاول اللحاق بركب التطور، لكن الخدمة المقدمة لم تصل إلى المستوى المطلوب، نظرا للقيود المالية والقانونية والتقنية التي تعجز أغلب الجامعات عن تخطيها وتلبية احتياجات المستفيدين مع توفير المسئول اللائق لهذه الخدمة.

سوف يعتقد القارئ الآن أن هذه السطور من باب (النقد)، ولكنها بلغة العصر على سبيل (الوَكْزُ). إن المكتبة (ثقافة) بحاجة إلى تأصيل. والآن المكتبة صارت متعددة الاستخدام والتقنيات التي تلاءم العصر، فهل سنظل شعوبا محرومة من المكتبات الجامعية وآثارها العظيمة على الفرد والمجتمع؟ أم سنبدأ في العمل الآن دون توقف لنفتح مكتباتنا الجامعية 24 ساعة، سبعة أيام في الأسبوع، لنحيي مجد أسلافنا، حيث وجدت المكتبات في الشرق حوالي 1250 ق.م، لتنتهي وتختفي أصداء تلك العبارة المقيتة من مكتباتنا الجامعية: «اجمعوا أغراضكم، سنغلق أبواب المكتبة بعد 10 دقائق».

= = =

المراجع

= أعمال المؤتمر الإقليمي حول التعليم العالي، القاهرة يونيو (حزيران) 2009.

= باتريشيا سين بريفيك، إي. جوردون جي، التعليم العالي في عصر الإنترنت. ترجمة: طارق عليان، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2014.

=جي جي تشاودوري وآخرون، مقدمة في أمانة المكتبات. ترجمة: أماني عبد الصمد، القاهرة: مجموعة النيل العربية، 2009.

نازك ضمرة

الغازي غازي



سحب الغطاء. نظر إليه. قربه من وجهه. لحظ عليه شيئا ما انحرف للجانب الآخر. ظل ضاغطا عليه بأصابعه. قال لنفسه: «أريد أن أحلم قبل أن أرى الحقيقة». ابتعد عن المكان ويده قابضة عليه. احسّ بالأمان قليلا. تناوله بيده الأخرى. رفع يده القابضة على الغطاء مرة ثانية أمام عينيه. تأمل الجملة المطبوعة: «ثلاثة أيام وتذكرة لبيروت».

«أصحيح ما أرى؟» العبارة واضحة جدا. قربه من عينيه ثانية؟ أعاد القراءة: «ثلاثة أيام وتذكرة لبيروت».

رحلة مجانية لبيروت؟ لا أصدق ما أرى. كيف طرق الحظ بابنا؟ أم هل أراد أن يغير فكرتي: من لا حظ له، لا يتعب ولا يشقى؟ لبيروت؟

رغم أنني زرتها مرات عدة قبل عام 1972، لكن ما المانع أن أزورها من جديد ما دام الحظ قال ذلك؟ (لا تقل شئنا، فان الحظ شاء).

في بيروت أراد أن يستمتع بزيارة مواقع كثيرة. صعد للمصايف القريبة والآمنة. أخذ صورا في الساحات وقرب أشجار الأرز، والعمارات السليمة والمشوهة بالقصب. زار جامعة بيروت العربية والجامعة الأميركية. تجول في شارع الحمراء، وتفسح مرات عدة على شواطئ بيروت ومقاهي الروشة، والتقط صورا تذكارية مع الصخرتين الناتئتين قرب شاطئ الروشة.

تمنى أن يلتقي أحدا ممن عرفهم سابقا من الشباب والفتيات وفنانات علب الليل، وشغالات الشقق، والشخصين (الهومو) اللذين سكنا بجوار شقته

المستأجرة. مرّ بالقرب من أحد المقاهي التي اعتاد الجلوس فيها.

«سأقعد جلسة من جلسات أيام زمان. آه منك يا بيروت! بيروت تتغير وتتبدل. سُمعتها كانت غير ما أرى. هل تنحدر المدن مثل الإنسان؟

اتجه صوب المقهى واتخذ له مقعدا في أحد الأركان، حيث كان يجلس مع شلته يوم كان في بيروت. جاءه النادل مسرعا، وكأنه على معرفة به، وكالعادة القديمة طلب شيشة وشرابا.

«هل تريده «عجمي» أم «معسّل» أم «كيف» يا بيك؟»

احتار بماذا يجيبه. «هات أي نوع . كلها تدوخني، وأنا لست مدخنا».

هز النادل رأسه باسما ثم قال: «سلامتك يا بيك، ستكون سعيدا».

بعد قليل كانت الشيشة تقرقر بين رجليه و(المبسم) لا يبتعد عن فمه لحظة. تراخت مفاصله. أحس بخفة في رأسه، فغرغر ورطب حلقه بجرعة من الشراب الذي أمامه، ثم عاد لتدخين الشيشة، فأحس أنه ما يزال عطشانا.

أفرغ بقية القارورة في جوفه، فازدادت الدوخة في رأسه بعد قليل، وها هو الآن يرى مناظر مختلفة، وأناسا يجلسون باهتزاز. احسّ بالراحة بعد التعب من المشي طويلا في شوارع بيروت، يرى الصبايا بملابس كاشفة وفي تحرر جاذب. وهناك عند مدخل المقهى حسناء تنتظر وأمامها شراب خفيف. لماذا لا أتوجه لأدعوها لمشاركتي شرابي، أو أشاركها الجلسة؟

ردد الجملة اللبنانية المأثورة: «كـ... أخت بيروت شو حلوة هيي وبناتها».

«بيروت بلد العجائب. سأريح رأسي على هذه الطاولة لبضع دقائق» (ما حدا بيسأل).

أثناء ثني رأسه باتجاه الطاولة، لفتت نظره صورة بالأبيض والأسود معلقة على الجدار لشاب شامخ الرأس، واثق من نفسه.

«هل هي صورة غازي يا ترى؟ تشبهه. يخرب بيتك يا غازي معقولة؟»

دفن رأسه ثانية بين ذراعيه على الطاولة، وبدأ يتذكر.

كان علما، وكان موضع حب الجميع.

«يا غازي، يا غازي: أهلك هنا، وسنوات مرت عليك وأنت مرتاح في عملك. اعتدت على روائح وخيرات البترول وتوفير الدولارات، فلماذا لا تفكر بالزواج أولا قبل الذهاب إلى بيروت؟ إلى لبنان وجنوب لبنان؟ لماذا يا صديقي؟

كنا في شارع البطحاء. مرت مجموعة من الأعمدة السوداء المتحركة في

الشارع يصدر من ثناياها أحاديث ناعمة مغناجة، وقهقهات رقيقة تدير رأس اي رجل قربها.

قال غازي: «أتريدني أن أتزوج امرأة من مثل هذا القطيع النسائي المجلل بالسواد أم أن احضر واحدة من دولة أخرى لتنضم لهن؟ حياتنا وتاريخنا وماضينا كله سواد في سواد».

وتمر في هذه اللحظة سيارة (جيب ويليز) أميركية مكشوفة يجلس بها اثنان من الشباب.

قال غازي: «صحيح أنني أخدم فلسطين والفلسطينيين هنا، لكنني أريد أن أكون في مكاني على الحدود، ننهك العدو، ونخطو على درب التحرير في لبنان كل يوم».

صاح النادل مناديا لتجهيز طلب لزبون جديد. كان ذلك بصوت مرتفع، وبلحن خاص قوي. لفت ذلك انتباهه فسمعه، تململ قليلا، سحب يده الأولى وقد بللها العرق، فتصور الأمطار الغزيرة قبل أعوام في منطقة الرياض.

شاهد السيل وسط المدينة يفور بجريان المياه المتدفقة، حتى أنها فاضت على الشوارع المعبدة، وأضرت بالكثير من المنازل، وعطلت السيارات.

وجرى سيل غزير من الدماء في لبنان وشمال فلسطين.

لم يصدق الناس كثرة المطر وغزارته ذلك العام، ولا كثرة ما سال من دماء عربية كثيرة في المخيمات والقرى في لبنان، ودماء الأعداء في المستوطنات قرب الحدود.

سرح بحلمه أبعد وأبعد. رأى غازي يقف أمامه، يتحرك في كل اتجاه، لا يستطيع الثبات حتى لثوان. قلت له:

«يا غازي كل من رآك ظنك خبيرا أوروبيا أو أميركيا. أشقر الشعر جميل الشكل. حتى لباسك وطريقة نطقك مثلهم. هل أصبحت خواجا؟ أم لأن الفلوس كثرت معك، بسبب حصولك على وظيفة جيدة في الرياض؟

«تعلم أنني قطعت مرحلة متقدمة في تعلم اللغة العبرية. وأتقنت اللغة الإنكليزية من خلال علاقتي مع خبراء الأميركان».

تخدرت يده الأخرى كذلك. رفع صاحبنا رأسه. نفض يده وحرك أصابعه، فاتجهت عيناه ثانية على صورة الجدار. أراد أن يبحث عن الحسناء التي تجلس وحدها، فوجد أنه قد انضم لها شاب جذاب وامرأة متعرية أكثر جمالا من

الأولى. لكن صورة غازي كانت اكثر جذبا لعينيه المتعبتين المخدرتين.

تأمل الصورة مرة أخرى. رأى شلالين أسودين ينبعان من عينيه ويجفان في الطريق قبل وصولهما إليه. أمال رأسه للخلف حتى يهيء نفسه للنهوض بعد قليل.

بعد عامين من سفره، وفي حفلة عرس الدكتور إبراهيم، أتذكر أننا سألنا شقيقه المحامي عن أخباره فأجاب:

«وصلتني قبل أيام رسالة من غازي بعد مرور عام على استقراره في بيروت».

مد يده وأخرجها من جيبه. «هذه هي الرسالة». اختطفها صديقنا كمال منه، وراح يقرأ على مسامعنا:

«بيروت رئتنا التي نتنفس بها، نمارس فيها بعض حريتنا، نستعد يوميا لكل الاحتمالات. أعداؤنا أيضا يمارسون حريتهم وهم يجربون طائراتهم مغيرين بأحدث أدواتهم التدميرية. أصبح ذلك برنامجا مألوفا لنا. هذه فرصتنا يا أخي للتعود على عدم الخوف منهم. أصبح تعامل الناس مع السلاح كالتعامل مع الغذاء والدواء والكساء.

«حتى الأطفال أصبح السلاح يعوضهم عن السينما وأفلام الكرتون والنوادي والملاعب الرياضية. أصبح الموت مهنة لنا. أحاول أن أنسى كل ما عندكم، فالجمال والتغيير في بيروت يملأ حياتنا أينما ذهبنا: في المخيمات، في الشوارع، في الخنادق، في ساحات التدريب على الحدود. لا فرق في المهمات ولا في المعاملة ولا في الحقوق بين الرجل والمرأة. ما لم يصبح جميع العرب مثل بيروت، فسنظل أضحوكة للعالم المتعطش لدمائنا وأموالنا.

«أخي العزيز: ابلغ كمال أنني زرت قريتي وقبر والدنا. حينما شاهدني بعض من قريتنا في فلسطين. ظنوني صهيونيا أميركيا أو أوروبيا بسبب لون بشرتي الأشقر، لكنهم لم يهربوا، بل توقفوا ينظرون إليّ بشك وبحقد. أسند معظمهم ظهره للحائط أو لباب ليرى ماذا سأفعل.

«قابلني شخص كبير في السن. قال: « كأني اعرف هذا الوجه، هل أنت من حَمولة الفهود؟»

«لا أعتقد أنه من أحد أقاربنا. لم يكن لدي الوقت للتعرف عليه. كان أمامي مهمات أهم من ذلك بكثير، فأنا متسلل خفية لداخل الأرض المحتلة.

«هناك وبسبب خبرتي في اللغة الإنجليزية، تم تحويلي من الهلال الأحمر إلى الجناح السياسي ولست نادما على ترك العمل والدولارات والهدوء عندكم، احس أن عدونا هنا معرض لنا في كل مكان.

«نجوت من الموت مرات عدة. اصبح النار والرصاص والسلاح زادنا اليومي.

«قد لا تصدق يا أخي أن مجموع أفراد المخابرات من الدول الأجنبية يفوق عدد المقاتلين هنا، وهم الآن موجودون في كل مهنة وفي كل مكان.»

رفع أحدهم صوت المذياع فجأة، فأيقظه صوت أم كلثوم: «اروح لمين؟! وأقول يا مين ينصفني منك؟»

عدل رأسه. سمّر عينيه على صورة الجدار ثانية وثالثة. تأملها جيدا، وتفرس بملامحها. قال لنفسه مرة أخرى:

«هل يعقل أن تكون هذه صورة غازي؟ وهل يعرفه أصحاب المقهى؟ ولماذا يعلقونها؟»

أحس بالقليل من الصداع، وتعبت كلتا يديه. رفع رأسه. استطلع جميع جدران المقهى. نظر في وجوه الحاضرين. مد يده في جيبه. سدد الحساب للنادل وأكرمه، ثم غادر المقهى متراخيا.

انعطف لليمين إلى شارع يقل مرور السيارات فيه. مشى طويلا. ما زال يحسّ ببعض النعاس. أراد أن يستعيد نشاطه، فمشى ومشى. استعاد الكثير من ذكريات الماضي، ومروره بهذا الشارع لاختصار الزمن والبعد عن ضجيج السيارات في المرات التي زار فيها بيروت.

في يوم قائظ، نزلت من باص الشركة التي أعمل بها. كنت مرهقا من كثرة العمل في ذلك اليوم. وعليّ أن أمشي مئات الأمتار قبل الوصول إلى منزلي. وما أن طرقت الباب، حتى أسرعت زوجتي تطلب مني التحدث مع كمال على الهاتف لأمر هام.

تحلقنا حول شقيقه المحامي في ساحة العزاء المسقوفة أمام منزلهم بعد مغرب ذلك اليوم. سألته: «كيف حدث ذلك؟» قال شقيقه:

«خرج على رأس وفد للإصلاح بين فريقي تنظيمين عربيين مختلفين في لبنان، ربما أن المخابرات الأجنبية كانت وراء هذه الخلافات. وفي آخر النهار، وبعد حل الإشكال، ودع غازي الفريقين وتعانق الجميع فيما بينهم،

فرحين بما توصلوا له. هنأوا بعضهم بعضا. شكروا غازي على دوره وصبره. سار متحمسا وبخطى ثابتة متلهفا لسيارته على عجل، وكان يحرسها نفر من اتباعه من مساعديه.

«وعلى بُعد مئة متر من السيارة، سمع رفاقه طلقة خفيفة من كاتم صوت تنطلق من جهة ما. توقف غازي قليلا، شاهده رفاقه يلتفت لليمين. انحنى قليلا. استند على ركبته وبدأ يصوّب سلاحه. وقبل أن يضغط على الزناد، انزله بهدوء ثم ارتخى، واحتضن الأرض التي أحب».

هدى أبو غنيمة

حكايات غافية + بوح الياسمين

حكايات غافية



إلى حفيداتي تالة ولينا ونور وفرح ولميس وحلا

لم أنتبه إلى تلك العلب المنسية في أحد أدراج خزانتي، وما فيها من حكايات غافية، ومباهج صغيرة، حتى فتحت حفيدتي الصبية تلك العلب هاتفة بفرح: «لماذا أهملت هذه الأشياء الجميلة؟»

علب بورسلين مرصعة بأحجار الكريستال، ما زال الملبس فيها مغلفا بالسوليفان تحكي ذكريات أفراح مضت، وقصص حب صدحت بأغانيها وأهازيجها وزغاريدها، يوم كان الناس يبدعون الفرح بنبض القلوب العامرة بصدق المحبة والود، أكثر مما يحفلون بتصنعه.

أقراط وأساور وعقود، بعضها هدايا من صديقات وأهل، وتذكارات من أماكن سياحية، بهت معدنها وخبا بريق أحجارها.

رسائل قديمة، تؤرخ لأزمنة بهجة التواصل، ومراحل العمر وتحي حكايات لا تكتمل، حتى نجدد صياغتها وقراءتها.

مروحة يدوية جميلة مزينة بالدانتيل، اشتريتها ذات صيف من إسبانيا، تذكرت زهوي بحملها، والعربة تسير بنا في ظلال أشجار النارنج في إشبيلية، وكأننا أسرة أندلسية تنعم بعز حضارة بهية.

قلم ستيلو معرق بتعريقات رخام أخضر جاءني هدية تفوق من مدرستي،

يوم أنهيت المرحلة الابتدائية، انكسرت ريشته مثل انكسار الأحلام والأماني الإنسانية.

ألبوم صور لأعزاء رحلوا، ما إن أعدت النظر فيها حتى تداعت أصوات ساكنيها معاتبة عزوفي عن النظر إليها، ربما خشيت أن أتجرع غصص غيابهم من جديد.

بعض التحف الفضية، والأطر الفارغة المكسورة.

انهمكت الصبية في انتقاء الصالح منها، وتلميعها وإفساح مساحة لها في ركن جانبي من غرفة الجلوس، لتصحو حكاياتها، ثم نادتني مزهوة: «أترين كم هي جميلة!»

قلت: «أجمل منها أن يصحو زمن بعض من حكاياتها على يديك. سأكتب عنك حكاية».

أشرق وجهها مثل نور شمس الضحى، وهو يبشر بقدوم نهار جديد».

بوح الياسمين

بثت ياسمينة دمشقية رسالة لي عبر أريج ياسمينة في عمان تخللت روحي، وهي تعاتبني: هل نسيت أم تناسيت؟ والتناسي خوف من مواجهة. صمت، والصمت غصة حنين.

أسلمت شجوني لغيمة عطر حطت بي قرب قبة السيار فوق قاسيون. بحثت عن السيدة التي كانت تزورني في أحلام طفولتي وتطير بي إلى بيتها قرب القبة، وتهديني أقلاما ملونة وأوراقا لها أجنحة مثل العصافير، تغرد ما إن أبدأ بالرسم والتلوين عليها.

تمالكت نفسي، كي لا أتوغل في متاهة أحلام قصت أجنحتها تصاريف الأقدار، وأحزان الأوطان.

تضوع أريج الياسمينة العمانية مهيبا بي أن بوحي بوجدك قبل أن تنطفئي، واروي زهور وجدانك الذابلة بالبوح الشفيف. زوري البيت الذي أهملته في أقاصي وجدانك، واروي زهوره لتحيي الأمنيات.

استرقت النظر إليه بعد أن تجنبت زيارته طويلا، كي لا أغرق في بركة

دمعه. اقتربت فطوقتني شجرة المنوليا بذراعيها، شجرة أمي الأثيرة. وما إن فتحت الباب والنوافذ، حتى غادرت الوجوه المحبة الغائبة إطار صورها المعلقة على الجدران مرحبة بي، وقالت: «أحينا بالبوح لا تنقطعي». فقلت: «وهل بقي من العمر مساحة للبوح؟»

امتلأ الفضاء حولي بالعطر.

رن هاتفي الخلوي. جاءني صوت جارتي الجديدة: «مساء الخير، ياسمينتك ملأت المكان بأريجها، أرغب في فنجان قهوة بقربها».

قلت: «تفضلي. يسعدني حضورك».

لم أحدثها عن بوح الياسمين خشية أن تظن بي الظنون، لكنها فاجأتني، وهي تحدثني عن حنينها إلى ياسمين دارها في فلسطين، قبل أن تهمي زهراته على نعش شهيد.

امتد الحديث بيننا، فخلت أن زهور المكان قد استطالت وانتعشت بأنس التواصل، وموسيقى الكلام.

في صباح اليوم التالي، اشتريت ياسمينة أخرى لي وأهديت جارتي أخرى، وقلت: «ازرعيها في حديقتك، واستمتعي ببوحها».

قالت: «وهل تنطق الأزهار؟»

قلت: «أجل، فعطورها بوح وتسابيح».

طه بونيني

وحدك من يعرف



اسمي: جابر.

العنوان: غزّة.

الوضع الاجتماعي: محاصر.

انطلقت بنا سيّارة الأجرة من حيّ الشُّجاعية شرقَ غزّة، وراحت تبذل أقصاها لتصل إلى بيت حانون في أقرب وقت ممكن. أخذَ السائق المخضرم يغذّي دوّاسة الوقود بشكل يؤهله لإحراز وقت قياسي جديد. لعب الزمانُ والتَّكرار فيه دورا، ليبدو على هذه الهيئة. جذعُه ملتصقٌ بالمقود، وبدنه يُكابد البرد والمسافات كلّ يوم.

لقد اخترق السّائقُ الضّبابَ صباحا بنفس السرعة التي شقّ بها الريح الباردة وبِرك الماء، على طول المسافة التي قطعناها. حتّى السيّارة المعطوبة تبدو وكأنّها قد تطوّرت بفعل وُعورة الطريق واهترائها، إلى سيّارة تتصبّر على الحُفر بجَلَد.

كان السَّائق يتحدّث ويقُود، وفي الوقت نفسه يتلفَّتُ يمينا وشِمالا، وإلى الوراء عبر المرآة الخلفية. أمّا الذي لم أفهمه هو تلك النافذة المفتوحة رغم البرد القارص، والتي لا يثنيها لتهشيم رأسه والتغلغل إلى تلافيف مخّه إلّا تلك الكوفية.

جلس بجانبي رجلٌ يحتمي من البرد بكل ما أوتي من لباس، ورغم ما يعانيه فقد تمكّن هذا الرجل من إيجاد الإرادة لحمل جريدة تغطّي ما يجري

وراءها كالغمامة، وقد كان يحاذيه شابٌّ يبدو بوضوح من خلال مظهره أنّه حمّال بإحدى أسواق الخضر التي تفتح في الصباح الباكر.

على الكرسي الأمامي كان يجلس شيخٌ طاعن في السنّ، تحكي تجاعيده حكايات الزيتون، وتحمل بين طيّاتها أزمات الوطن ونكباته. آلمني أن أراه يشكو ويستأذنُ للتوقّف في حرج وضيق. وكان السائق يتبرّم لذلك، ثم يتوقّف بعد لَأْيٍ. لقد كان يعاني التهابا في المثانة، كما يعاني أغلب سكّان غزّة من أمراض لا حصر لها، بل يشكُون حتّى الصحّة الضائعة في الفراغ.

كانت الريح في الخارج صرصرَ عاتيا، لا تشجّع على الخروج. منذ أيّام فقط كنّا نشكو انعدام المطر، وها نحن اليوم وقد أوشك الخريف على الانصرام، نكابد عناء الوقوف في الخارج.

«من فضلك ارفع صوت الراديو»، ردّدها الحمّال وقد طنّت في أذنه كلمة: «التغيّر المناخي.»

استمعَ الشابُّ للإذاعة لثوان، ثمّ عاد ليغطّ في نومه. استمَعَ لبِضعِ كلماتٍ حولَ التغيُّر المناخي، وتلك الأشياء التي تخصّ باقي الكرة الأرضية. لم تزد هذه الاستفاقة عن أضغاث أحلام. إنّها محاولةٌ عادةً ما يقوم بها عقلنا اللّاواعي، متمسّكا بإنسانيته، رغم الحصار واللاإنسانية والعزلة المفروضة علينا فرضا.

قلتُ في نفسي: «هل تتصوّرُ الحديث عن مشكلة التغيُّر المناخي في قطاع غزّة؟ لقد صار السرطان مرضا شائعا، كصداع الرأس، وهذا الشابّ يقضُّ مضجَعَه الهنيء التغيّر المناخي».

لعلّ هذا الموضوعَ مُهمٌّ جدّا، فقد جعل العالم كلّه يتّفق، ولأوّل مرّة في التاريخ. ليتَهُ اتّفق لفكّ عزلتنا.

الكثير من المسائل تشغل ذهني، كلّما ركبتُ سيّارة الأجرة. منذ شهور وأنا أشقّ هذه الطريق، مرّتين كلّ أسبوع. رحلةٌ في الصباح الباكر من يوم الأحد، ورحلةٌ مساءَ يوم الخميس. تحتوي صباحات الذهاب على سرب من الأفكار المنعشة. وتتشبّع مساءات الإياب بعواطف الشوق.

وعلى غير العادة، فقد رافقتني منذ الانطلاق تغاريدُ حنين واشتياق مُبكّر، وهذا كلّما وقَعَت عيني على خاتم الخطوبة. هذا أملٌ آخر يعطي للوجود معنى. أملٌ بوسعي التحكّم به. أرهقتني الآمال الكبيرة.

كانت الريح في الخارج تعزف موسيقى الرعب، وكان وجداني يعزف

أنشودة النبض على إيقاع القلب.
تمثّلَ الخاتَمُ أمامي ككتابٍ وألبوم صور،
كشاطئ غزّة، الذي يفتح نافذة على العالم،
كشمسٍ تبعثُ الدفء في جسدي وتدفع عنّي البرد والصقيع.

التقيتُ بصاحبةِ الخاتم وعائلتها، أوّل مرّة في قسمٍ بمدرسة ابتدائية، احتمينا جميعا بها، عائلتي وعائلتها في حرب صيف 2014.
كُتِب لنا النجاة، ولا زلنا نحتمي ببعضنا البعض. نحتمي من العالم الذي يحاصرنا، ومن العدوّ الذي يتربّص بنا. نتّقي شرَّ الحصار، والجوع والبطالة والمرض. نتحصّن من جميع هذه الغِربان التي تحوم فوق رؤوسنا كلّ يوم.
كان فكري ينساب في الصفاء كقوس قزح، عندما انفتح الباب الذي كنتُ أرمي بثقلي عليه. لحسن الحظّ، تشبّثتُ بكرسيّ السائق، وأحكمتُ إغلاق الباب. نظر إليّ الشخص المغلّف بجانبي شزرا، ثمّ عاد إلى جريدته. لولاه لما التصقتُ بالباب أصلا.
حاولتُ زرعَ ألوانٍ زاهية في السَّماء الملبّدة من جديد، لكنّي لم أستطع، فأنا لم أجد الخاتم. ورحتُ أخاطب نفسي وأرتجف كالمجنون: «هل يُعقل؟ لقد سقط».
وانهار الصباح فجأة عندما سقط الخاتم.
توقّف الزمان، واستحالت الثواني ساعات. وصرت أسمع صوتي الداخلي يكبر ويتعاظم. أحاول الجهر للسائق برغبتي في التوقف، لكنّني أصطدم بالخجل والخوف والبرد، وقد رأيتُ ردّ فعل السائق حيال رغبة الشيخ في التوقّف. ثمّ قلت في نفسي: «ماذا عن الخاتَم الذي ورِثَته الفتاةُ كابراً عن كابر، والذي استقرّ في البِرك تهاونا منّي؟»
سُرعان ما ارتدّ صدى الواقع المثبّط داخل جمجمتي. وتغلغل عميقا حتّى كاد يُلجمني. حينها أحسستُ بالبرد لأول مرّة منذ ركوبي السيّارة بل بالتجمّد.
مشهدُ التجمّد هذا، قد تكرّرَ خلال حياتي كثيرا.
ابتعَدَت السيّارة قليلا، واستمرّت الحياة. فالحياة لطالما استمرّت. أغمضتُ عَينَيّ، واستسلمتُ لإغفاءة صغيرة، هي أشبه بالغيبوبة منها إلى النّوم الهنيء.
أحسستُ ببعض المرارة تضايقُ حلقي، وتنتشر في كياني كلّه. نفس

الشعور بالغثيان يجتاحني كلّما فقدتُ شيئا عزيزا. لقد فقدت الكثير، نزِفَت حياتي أشخاصاً وأشياءَ. وفي كلّ مرّة أفقدُ فيها شيئا أمضي قُدما. أفقد وأمضي، أفقد وأمضي، حتّى أوشكتُ الوصول إلى طريق مسدود. إنّه شعور سلبي يدفعني لأن أمقتَ نفسي. أجدُ حينها ذاتي تدافعُ رغبتي في الكلام. إنّه إحساسٌ يكتمُ الأنفاس.

وقلت لنفسي: «أنا مضطرّ لاستعمال قوّة التجاهل مرّة أخرى. فقدتُ الوطن والأخ والقريب والصديق. رأيتُ أحلاما كثيرة تئنّ وأخرى تنتحر. لكنّ الأحلام والآمال لا تنفكّ تولد من جديد، من رحم الفراغ أو المعاناة، أو لا أدري. إنّها تولد رغم كلّ شيء، إنّها مثل نبتة تتفتّق من الصخر».

خَلُصَ ارتباكي لنتيجة: الخاتم لا يدرك أهميّته غيري في السيّارة ولهذا فأنا من عليه السَّعي لاسترجاعه. عندها تحرّرت فجأةً كلمةٌ متجاوزةً حشرجةَ حلقي: «توقّف».

وراحت أفكاري تتسارع، وكلمات أخرى تتحرّر وتصدُرُ من جوفي كطلقات مدفع. وسرعان ما خَضع السَّائق تحت صرخاتي التي انهالت عليه كالصواعق.

أخذ الجميعُ قسطاً من الراحة بينما أبحث، كانت الرحلة متعِبةً خاصّة للشيخ. عُدتُ أدراجي إلى بركة الماء، لأبحث عن خاتمي المفقود. لم يكن البحث سهلا، لكنّي ازددتُ ثقةً بهذا المبدأ: «إذا لم تأبه لحقّك المفقود، فالعالم كلّه لن يأبه لك».

رجعت بعد برهة إلى السيّارة وأكملنا الطريق وواصل المسافر بجانبي قراءة جريدته، وواصل الشابّ غطيطه، ورجع السائق إلى دندنته وتلفّته وتبرّمه، وبلغنا بيتَ حانون، لكنَّ الخاتم عاد ليُشرِق على صباحي من جديد.

انتصرتُ لنفسي على نفسي، في انتظارِ أن تنتصر فلسطين، وتُشرق شمس الحريّة، ويا له من إشراق!

فنار عبد الغني

ما وراء الصمت



من بين الخطوط الشفافة، المتعرجة، الطويلة، الصاعدة والهاربة من بين شفتيه، ومن بين الخطوط المتعرجة بشكل أفقي على جبهته السمراء، ونظراته المتأرجحة بين بحيرتين: بحيرة الوله وبحيرة الحيرة. بحيرتان ضاعف صمته المفاجئ وغير العادي من اتساعهما، فبدتا كأنهما عالمان من الدوائر المتشكلة خلف بعضها البعض. دوائر من الحيرة تخفي في تيهها هوّات من الحزن والسكون. من خلال تلك الملامح، كانت وحدها تستطيع قراءة ذهنه المتوقد عادة فكرا عميقا.

الرجل الوقور، المتزن عقلا وشكلا، والذي يغزو بفكره أفكار الآخرين، كان يجلس ملتفا بهدوء مقلق وغريب عنه، وبالكاد كان يفتح فمه ليخرج الدخان. صمته كان غير عادي ونظراته السابحة في المدى وباتجاه واحد لم تكن مألوفة لديها.

اليوم هو ذكرى مولده. أصرت أن تراه رغم الخوف الذي ينتابها كلما طلب منها لقاء. كانت قد أحضرت له هدية مميزة شغلت تفكيرها أياما.

أرادت أن تهديه شيئا مميزا. أرادت أن تدخل السرور على قلبه. أرادت بقوة أن ترتدي شيئا مميزا لهذه المناسبة المميزة. ارتدت ثوبا ربيعيا بلون الليلك، تتربع على جهته اليمنى ورود جميلة، ووضعت بعضا من عطر كان قد أهداها إياه.

أثار حزنها عندما لم يعلق على هيئتها الخارجية، رغم أنه لا يكف عن

التغزل بها كلما أطلت عليه كالبدر المترقب على حد تعبيره. كان لا يخفي إعجابه بحسنها ولطفها وثقافتها ورجاحة عقلها. الآن لا ينطق بحرف وهو الذي يلفت انتباهها لتورد وجنتيها ويغدقها بقوله «إنها وردة فريدة من نوعها».

ذات يوم اصطحبها في نزهة إلى غابة جنوبية، وبينما كانت تنظر مبهورة إلى كم الورود والأشجار الضخمة والفراشات الملونة، جذبها جمال شكل وردة لم تعرف اسمها. سألته:» ما اسم تلك الوردة الفاتنة؟»

قال لها بصوت رقيق وهو يثبت نظره في عينيها: «أي وردة حبيبتي؟»

أشارت بيدها نحو الشمال وقالت:» تلك الوردة الرائعة الجمال، التي تحط عليها النحلات، وأيضا بالقرب منها كانت فراشة كبيرة رائعة الألوان».

قال لها بثقة عالية، ودون أن يزيح نظره عنها: «لا يوجد هنا وردة سواك».

أسعدتها كلماته وبهرتها أكثر من تلك الوردة التي أسرت إعجابها.

اليوم يجلس قبالتها دون أن يسترسل في الكلام، دون أن ينتقل في الكلام من موضوع إلى آخر، ومن قضية إلى أخرى.

عندما ناولته الهدية لم يستلمها، أشار إليها أن تبقيها في حقيبتها، وتعيدها له قبل مغادرتها. خاب أملها لأنها لم تتوقع ذلك التصرف منه. لقد توقعت أنه سيمسك بالهدية بشدة ويشمها كما يفعل عادة عندما تعطيه شيئا ما كقلم أو مناديل ورقية أو كتابا أو جريدة، أو حتى قنينة مياه معدنية.

أجفلها صمته المذهل وعدم رغبته في الكلام، وأنبأها قلبها بأن ثمة خطبا ما يدور في ذهنه. كانت تشغل الوقت كله بالكلام. أخذت تتحدث عن يومها في العمل. وأطالت الحديث واستطردت بينما بقي هو معتصما بصمته.

شعرت أنه لا يليق به الصمت. شعرت أيضا أنه يخفي أمرا جللا وراء صمته. تابعت كلامها دون توقف ثم سكتت وأمسكت بكوب العصير، وشرعت تشرب العصير بتمهل، مانحة نفسها وقتا كافيا ترتاح فيه من عبء الكلام وتمنحه فرصة ليرتاح من عبء الصمت.

ماذا بعد الصمت؟

غادرا المكان المتربع بين أكتاف الجبال الخضراء. ومضى كل واحد منهما في سبيله، لكن قلبها ظل هناك يسرح داخل المطعم الريفي الجبلي المطل على بحيرة ذات مياه متلألئة كنظرات عينيه في تلك اللحظات التي لا تنسى في

حياتها، والتي ظلت تستعيدها من وقت لآخر محاولة فك رموزها.

تبحث فيما وراء الصمت، فيما وراء تلك النظرات المتأرجحة بين الحيرة والغربة عن الذات. ظلت روحها رهينة الصمت، سجينة الحيرة. ظلت تطمح أن تطلق سراح تلك اللحظات الأليمة التي كانت ميلادا لمغادرة الطمأنينة من روحها والولوج في دوائر الظنون المؤلمة والمظلمة.

بعد ثلاثة أشهر من الصمت، تلقت منه مكالمة هاتفية تنبئها بأنه سيغادر إلى كندا.

زهرة يبرم

مذكرة يوم عادي

عقارب الساعة تقارب الواحدة ظهرا حين دعاها للخروج في جولة على كورنيش البحر، فكانت سرعتها في تجهيز نفسها بقدر عشقها لتلك الأماكن. وفي دقائق كانت أمام الباب. ولما استقبلهما الشارع انتبهت إلى السماء الغائمة وهمت بالرجوع للإتيان بمظلة تحسبا لنزول المطر، لكنه رأى في المظلة حملا زائدا، فالمواصلات متوفرة على المسار تُنْجِدُهما إن أمطرت.

وبعد خطوات قليلة، ولما مازحته قائلة إنه استبق فصل الربيع حين غير معطفه الشتوي بجاكيت خفيفة وقد يبرد، انتبه إلى أنه نسي نقوده في جيب المعطف وهم بالرجوع. لكنها طمأنته أن معها بعض المال، وهما في العادة لا يحتاجان إلى مال كثير في نزهتهما تلك.

كان دأبهما بين الحين والآخر أن يسرقا من العمر المهدور في براري الزمن وقتا للانطلاق والحياة، يتوغلان في السير قدر ما يستطيعان، وحين يتعبان يعودان في المواصلات العامة.

إنها تريد لهذه السويعات أن تكون خالصة لها، تعطل فيها بعض الحواس وتنشّط أخرى، فلا تفكر في الأمور الهامة، ولا ترد على الهاتف. لا تتكلم كثيرا مع رفيقها، ولا تسمع إلا بالقدر الذي تريد. تتنفس عميقا، وتسرح ببصرها في كل الاتجاهات تأمّلا في تفاصيل كل شيء.

يهزمها البحر حين تراه، يلغي عقودا من عمرها ويعيدها طفلة في العاشرة. رائعة مدينتها بموقعها على خليج، وحيازتها على شريط ساحلي طويل كثيرِ المعطفات، يزخر بالجمال والدهشة. وكم تحب في كل مرة تأتي إلى هناك، حتى في عز الشتاء، أن تنزل إلى البحر وتداعب موجه بأقدامها، وتعشق من بين الشطآن شاطئ الجنة!

ثمة مشاهد على المسار شاسعة لا مثيل لها قد لا يكترث لها من اعتاد

عليها، لكن أولئك الذين يهيمون متأملين من حولهم بحثا عما يبعث في نفوسهم انفعالا وإعجابا ينبهرون حتما بها، وهي من هؤلاء، فرغم اعتيادها ما زالت عيونها نهمة تعب من جمالها الذي لا ينضب.

مفتونة بالأمكنة جميعها ومهوسة بالتقاط جمال وجهها دون ملل. لم تعرف يوما أفقا أوسع وأكثر عجبا من شواطئ مدينتها. تمنت لو كانت تملك ناصية اللغة، إذن لأخذت على عاتقها أن ترسم لنا المشاهد بالكلمات. لبيّنتْ لنا المشاهد بألوانها المتبدلة على وقع تعاقب الفصول، سوداء مائجة تحت المطر، مشرقة منشرحة تحت أشعة أفريل [نيسان] الأولى، ومتوهجة صافية تحت شمس أوت [شهر آب/أغسطس]. الروعة تحيط بها من كل جهة وترويها.

كم ترغب في ضم البحر والجبل والسماء وتتملكها في فسحة عناق! لكن الطبيعة الشاسعة تفلت من بين ذراعيها الأقصر من أن تحضنها. تتأمل كل شيء، تشم كل شيء، وترغب في أن تقول كل شيء. بودها لو تعرف كيف تسكب مشاعرها بكاملها على صفحة بيضاء، ستكون سفينة خلاص كبيرة لها.

كان الهواء يدخل رئتيها منعشا عابقا برائحة الملح، والصيادون قابعون على الصخور وفوق سور الكورنيش يمارسون غواية الأسماك، ولوح إلكتروني يشكل جسرا على الطريق يشير إلى درجة حرارة ما، وإلى يوم وساعة ما، لكنها لا تهتم لدرجات الحرارة ولا لموقعها من الزمن. ولم تكن نشرات الرصد الجوي تشد اهتمامها يوما. لا تعبأ بالسحب التي تزحف نحو سمائها ولا للطيور التي تملأ الجو هروبا من عاصفة قادمة. بل كالطيور هي تحمل غريزة الحرية، وكل أمنيتها أن تبلغ الشاطئ الذي معه تسطر حكاية سحرية.

بالَغَا في الابتعاد. تجاوزا كثيرا من الشواطئ وبلغا شاطئ الجنة. أبدت رغبتها في النزول إليه، فليس أجمل من نزهة على حدود الماء.

اعذرها سيدي، ليس عنادا منها بل متيمة بشاطئ يحيط به الجمال أنى ولّيت وجهك. لا عليك منها. افترش جريدتك واجلس على الرمل. متع ناظريك بالجمال وبهدوء المكان. انظر إلى البحر يلتحم بالسماء الرمادية في تواطئ لوني، لكأن البحر نسي أنه البحر والسماء نسيت أنها السماء وصار كلاهما يهيم في الآخر.

مشت على طول الشاطئ ذهابا وإيابا لا تفكر في غير متعة اللحظة، إلا أن

السماء باتت تنذر بقرب نزول المطر. وبدأت أولى القطرات تنزل. يا لهنائها، موج ومطر! فتحت ذراعيها وأغمضت عينيها وأودعت وجهها للمطر.

شرع المتواجدون القلائل على الشاطئ يجمعون أغراضهم استعدادا للمغادرة، كما سارا مغادرين المكان. مشت على حدود المد تودع البحر قبل صعود السلم إلى الكورنيش، لكن موجة عاتية هاجمتها في ارتفاع لم تكن تتوقعه، طالتها وبللت حذاءها وأطراف ثوبها، وصار السير بحذاء مبلل مضنيا.

على الطرف الآخر للطريق كافيتيريا اعتادا احتساء كؤوس من الشاي بالنعناع فيها مع حلوى «قلب اللوز» اللذيذة. ولن يغيرا من عادتهما. شربا كأسيهما، وأخرجت حافظة نقودها لتدفع للنادل، لكن الفجاءة أن لا نقود فيها. فتشت جيوبها الكثيرة علها تعثر على بعض الدنانير، لكن كانت كلها تصفر مع الريح. آه من آفة النسيان! لقد حولت النقود إلى جيب حقيبة أخرى.

غزر المطر وهما يسيران تحته دون أن يملكا ثمن سيارة أجرة. لكنها عاشقة مواسم المطر. حذاؤها الطري يتمدد تحت وزنها يوشك أن يتفكك. كم تمنت لو يتهتك لتكمل طريقها حافية! وتتذكر عهد الطفولة حين كانت تخاتل أمها لتقلد أطفال الحي في اللعب تحت المطر. يدعكون الأتربة المبللة تحت أقدامهم لتصير طينا لزجا. تلك من المتع النادرة لكنها تحت الخوف من العقوبة.

واستولت عليها الفكرة. لكنه حذاء عنيد من الجلد الجزائري عالمي الجودة. إلا أن طريقة مشيها جعله ينهار تحت قدميها.

واحتفت. نعم احتفت ملبية رغبتها. وصمها بالجنون وهي تسير جنبه حافية منتشية بملامسة قدميها الأرض، والمطر ينزل فوقهما مجنونا. أمنية طفولية ما فتئت تطارد خيالها وتحققت، أن تسير بكل حرية كما الأطفال والمجانين في شوارعنا دون أن تقيدها نظرات الكبار والفضوليين.

لم تعد تنظر في عينيه، فقد غرق وغرقت في الصمت كما يغرق الفارون إلى لجاج البحر. اتسعت خطاه وأصبحت تفصلهما مسافة. صار يعاني كلاجئ في نوبة سفر. أما هي فلا تعاني. هي ليست مثله وهو ليس مثلها وليس على أحدهما أن يكون شبه الآخر. فليعش لصمته وليَدَعها فقط لمتعتها، فملامسة الأرض عشق.

كما لم تعد تنظر في عيون المارة، ليس كي لا يصيبها الخجل فلم يكن ذاك أمرا يخجلها، بل كي تستقل بمتعتها، فلا أحد يعنيه أمرها ولا نظرته لها تعنيها،

وأمنيتها أن يخلو الطريق إلا منها.

لكأنها عادت طفلة في العاشرة في أول لقاء لها بالبحر في مخيم صيفي، فراحت تنشد بصوت خفيض تطرب له حواسها:

Un kilomètre à pied, ça use, ça use
واحد كيلومتر على الأقدام، هذا يمزٍّق، هذا يمزّق
Un kilomètre à pied, ça use les souliers
واحد كيلومتر على الأقدام، هذا يمزق الأحذية
Deux kilomètres à pied, ça use, ça use
كيلومتران اثنان على الأقدام، هذا يمزق، هذا يمزق
Deux kilomètres à pied, ça use les souliers
كيلومتران اثنان على الأقدام، هذا يمزق الأحذية

وهكذا كان الأطفال يمضون مع إنشاد طفولي لا يتوقف عند رقم معين، حتى يصلوا إلى البحر، فيهرعون إلى الماء بكل قلوبهم البريئة.

محسن الغالبي

شيء من العذاب



«وحدهم الفقراء يستيقظون مبكرين قبل الجميع، حتى لا يسبقهم إلى العذاب أحد»

ربما كان الأمر كذلك كما قال محمد الماغوط، لكنني لست فقيرة، مع ذلك أشاركهم هذا العذاب في كل يوم. الأمر ببساطة ، أنني طالبة جامعة. أهجر سريري في الخامسة فجرا وقد ألتقيه في الثانية صباحا .نوع من العذاب. وأحمل معي فطوري لألتهمه في مطعم الجامعة أو على أحد المصاطب فيها ملفوفا بكيس من الورق أو النايلون، لا يهم، باردا على الأغلب، مع قدح من الشاي من أحد الأكشاك المهملة. هناك أتجرعه مجبرة. نوع آخر من العذاب.

أتصدقون أني أعيش هذه العذابات العذبة 365 مرة في العام؟ لقد أدمنت هذا كجندي أدمن خدمة العلم حتى صرت أستيقظ أيام عطلتي فزعة من أن يفوتني الباص رغم بقائي في البيت. في الأيام العادية يحدث هذا معي أحيانا. يفوتني الباص فأستقل تاكسي يكلفني مصروف أسبوع بأكمله. هذا ليس نوعا من العذاب. العذاب الحقيقي حينها يكمن في أني سأُجبَر على الاستماع إلى قصة حياة سائق التاكسي، أو أن أستجيب لأسئلته العديدة حول كل تفاصيل حياتي، ولا خيار ثالث لدي. إما حياته أو حياتي.

أتذكر مرة أردت أن أدعو صديقا. لم يكن صديقا بالمعنى المتعارف، معرفة فقط، عابر سبيل مر من هنا ثم غاب. أردت دعوته إلى فطور مرفّه قبل الوصول إلى الجامعة في مطعم ما كان يقدم وجبة فطور مبكرة. كانت

الاختناقات المرورية في قمتها. اضطررت إلى المشي مسافة طويلة. وصلنا متأخرين يغمرني قلق حول محاضرتي الأولى. لم يكن الفطور بذلك البهاء الذي تخيلته. كنت أجلس طوال الوقت يأكلني القلق وأنا آكل فطوري. كنت ألاحظ روّاد المطعم الآخرين يجلسون يتلذذون بفطورهم غير عابئين بالوقت. غير أن فطوري تحول إلى نوع من العذاب.

أتساءل أحيانا حول المعادلات التي تحكم هذه الحياة. الكثير من الأمور اليومية تتحول إلى عذابات. فلم لا تتحول بعض العذابات إلى متع؟ تذكّرني هذه بالانتروبيا. ولكن، ربما الأمر عائد اليّ؟ هل يمكن للمرء أن يرى المتعة ويجدها في كل شيء؟ حتى في العذاب؟ ربما ، لكن لا أظن أنا، لأنني مجرد طالبة.

وأعود للبيت، ذلك العش الهادئ الذي أنفض فيه غبار تلك العذابات اليومية المتكررة. تكرارها في الواقع عذاب لا يطاق. قد يحدث معي أن أعيش عذابا لم أعشه من قبل. تمر الأيام وتتكفل الذاكرة بمسحه. لكنه حين يتكرر يغرز مساميره في ذاكرتي ليضاعف أثره.

عادة ما أعود إلى البيت منهكة تصمّ آذاني أصوات المدينة وضوضاؤها، ويغطي ملامحي غبار الشوارع الذي لا أدري من أين يولد.! حتى الأشجار في بلدي تنفض الغبار، والمطر حين يهطل يحمل معه الغبار، كل شيء هنا مطعّم بالغبار. وحين أدخل البيت لأغلقه عن كل شيء خارجه، يفاجئني الغبار في الداخل أيضا.

ربما قُبلة من خالتي تمسح عني آثار كل تلك العذابات اليومية وتنسيني خدوشها وجروحها. فما أفتأ أن أجلس معها نتجاذب أطراف الحديث حول يومها حتى أجد أن أحدهم كان قد حمل لها نوعا آخر من العذاب أفسد عليها يومها. عادة ما يكون أمرا تافها بلا معنى. أقبّل رأسها وأصعد إلى غرفتي لاعتزل العالم كله. لكنه مجرد وهم. كيف لي أن أعتزل العالم وهو يدخل غرفتي، كما الغبار، من بابها، من كل نوافذها، من شقوق جدرانها، من المسامات اللامرئية في أحجارها، ومن هاتفي، نافذتي على العالم.

لا تمر سوى بضع ساعات حتى يطرق عليّ الباب من يفسد عزلتي ويعود بي داخل البيت إلى ما يشبه خارجه. أحاديث بلا فحوى، مشاكل الآخرين الذين ضاق ذرعهم بها فجاؤوا يبحثون عمن يشاركهم حملها، أخبار البلاد التي لا تهوى الهدوء ولا تهوى الاستقرار ولا تهوى الاستراحة، ولا تهوى

العزلة. اللصوص الذين حولوا حياتي وحياة الآخرين، بل الأخريات فلا شأن لي بالآخرين، إلى مسلسل يومي ساذج من العذابات المتكررة المجّة.

وقبل أن أرمي بنفسي على فراشي عند الثانية صباحا، أجلس أستعرض هذا المسلسل اليومي من العذابات، ربما لست الوحيدة. أفكر أن تمكنَت أحداهن من الخروج سالمة من هذا المسلسل الممتلئ الفارغ دون أن تصاب بلوثة عقلية أو عقدة يصعب الشفاء منها. وكيف؟

لا أظن أن كلهن قد أستسلمن له دون مقاومة. ربما حاولت أحداهن أن تجد طريقا ما لإيقاف هذا المسلسل، أو وجدت من يعينها على ذلك. ربما أسعفها الحظ فألهمها حلا لم تكن لتفكر فيه، أو كانت أكثر حظا فوجدت من يحمل لها الحل والخلاص على طبق من ذهب أو فضة أو حتى صفيح، لا يهم.

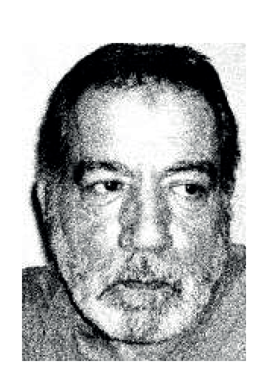
وعندما تقترب الثانية صباحا ، الساعة التي يشير مستوى الطاقة فيها عندي نحو الصفر وتتعطل فيها كل حواسي، أترك قلبي ورئتي تعملان على مهل، يصاحبهما جزء من دماغي لا يود النوم. وأرقد مستسلمة لقدري وللمسلسل اليومي الذي يبدو أنه بلا نهاية تماما مثل مسلسل تركي سمج. وأنّى لي أن أغير كل هذا العالم حولي؟ فأنا بالكاد رقم، مجرد رقم، في هذا العالم العدائي، مجرد رقم.

ربما تكررت هذه الليلة وهذا الاستسلام والخنوع ألفي مرة. فمنذ أكثر من خمس سنين والحال ذاته، والعذابات هي هي. لكن ما يحدث الليلة معي شيء آخر، شيء مغاير تماما ، شيء لم أعهده من قبل. مرت الساعة الثانية صباحا وجفنايّ لم يستسلما للنوم. أرى الساعة تقترب من الثالثة. تعبرها بدقائق. ما زلت في قمة صحوي رغم التعب اليومي المعتاد. شيء ما يدفعني إلى الرفض، إلى الثورة ربما، لكنها ليست بثورة، فالسكينة التي تنعم بها روحي لم أنعم بها من قبل.

أرى أشياء كثيرة تتهشم أمام مرأى العين. أحسها وأدركها بيقين. أشعر بخفة مثل طائر لا يعبأ بكل قوانين الجاذبية، بل ولا حتى بأسوأ أحوال الجو. أشعر أني أعرف بالضبط ما أريد. ليس الوقت وقت الشرح والحديث عما يجول بخاطري. ربما فيما بعد. وربما لا حاجة إلى قول شيء. يكفيني أنني أنا أعرف ما أريد. وأن العذابات اليومية عند الفجر القادم ستستحيل إلى فقاعات ليس أكثر.

زكي شيرخان

اعتزال



بدا وكأنه لم يُفاجأ عندما أخبرته أن الأستاذ نعمان جابر قرر الاعتزال، أو التقاعد، أو التوقف. لا أدري ما الذي أستطيع وصف قرار حرماننا من عطاءئه.

كل ما فعله هو أنه أدار وجهه قليلا، ووجه ناظريه نحو الكتب المرصوصة على الرفوف التي تقابله. هذه عادة أعرفها عنه منذ أن كنت أحد طلابه في الجامعة. خيّل لي أنه ركّز نظره على التمثال العاجي القابع بين الكتب.

بعد أن طال تمعنه، ولكسر الصمت، أكملتُ: «مساء أمس زرته لإكمال ما نُعده في ذكرى ميلاده السبعين».

وكأنه لم يكن يستمع، نهض متجها نحو الكتب. سحب كتابا، وعاد لمقعده.

كان ما يزال يدرس في الجامعة عندما صدرت له هذه المجموعة. بعد عشرين عاما وأثناء ما كنت أُعد أطروحة الماجستير تعرّفتُ عليه، واطّلعتُ على ما كتب النقاد عنه.

«سبق وأن حدثّتك عن بعض ما ربطني بنعمان جابر من صداقة ما زالت قائمة لحد الآن. أستطيع أن أدّعي أني أكثر معرفة به من أي شخص آخر. وأعرف ما يعانيه».

سكتَ برهة قبل يكمل: «كنت على يقين من أن ما يجري سيترك فيه جرحا».

«ألمّحَ لك بشيء حتى استنتجتَ؟»

«قالها بصراحة».

= =

«أهلا دكتور نمير. بعد غدٍ، الساعة التاسعة صباحا سنكون عند الأستاذ. لنا يومه كله».

«قد يكون محرجا ان أحضر نقاشا بين صديقين و...»

«آسف لمقاطعتك، هو من طلب أن تكون موجودا. فلنقل استكمالا لما تُحضّره».

أنهى المكالمة من دون أن يسألني إن كنت في حاجة لشيء، كما اعتدت منه.

= =

«خلال ما يقرب من خمسين عاما كُتب عني الكثير. لن أقول أكثر مما استحق حتى لا يتهمني الدكتور بالمبالغة في التواضع. ولهذا السبب لم أتحمس لفكرة أن يُحتفى بي في ذكرى مولدي في الملحق الشهري للجريدة التي تترأس صفحتها الثقافية، عندما أخبرني الدكتور نمير».

«الدكتور كان هو صاحب فكرة الملف عن حياتك وأعمالك وتأثيرك على الصعيد الأدبي. من الإجحاف نكران ما قدمته للقارئ، ومن الظلم ألا يُعترف بجهدك...».

«في هذا الملف بالذات الذي تستطيع تقديمه لقرائك هو اعتزالي الذي فاجأك عندما كنت عندي قبل أيام».

هنا تدخّل الدكتور: «شخصيا، ربما افهم بعض ما تعانيه، لكن هذا لم يسبقك إليه أحد».

وجهت كلامي للأستاذ:

«أفهم أن لاعب كرة القدم يعتزل بعد بلوغه سنا معينا لأن قابليته البدنية تضعف، وأفهم أن الممثل يعتزل بعد فترة قد تطول أو تقصر لأن لا أحد يعرض عليه دورا. السياسي يعتزل لسبب أو آخر. لكن القاص، أو الشاعر،

أو الرسام، أو الموسيقار لا يعتزل أي منهم لأن هذه ليست مهنا. يمكن لأي من هؤلاء ألا ينشر ما ينتجه، ولكن أن يتوقف، هذا ما لا أستوعبه».

أكمل كلامه بعد أن ارتسمت على شفتيه ابتسامة لم أستطيع تفسيرها:

«لا. يمكن لأي من هؤلاء أن يعتزل عندما لا يجد ما يقدمه. عندما لا يفهم الناس ما يقدمه. عندما لا يستسيغ الناس أعماله».

مرة أخرى تدخّل الدكتور نمير: «دائما هناك من يُعجب بالنتاج وهناك من لا».

«يا نمير، أنا لم أعد...»

ثوانٍ مرت على سكوته قبل أن يعاود حديثه:

«أدّعي أني من خلال قصصي ورواياتي قدّمتُ إجابات عن بعض أسئلة كانت تدور في ذهن القراء. اليوم، وبعد كل ما جرى ويجري وسيظل إلى أمد لا أحد يعرف منتهاه، زادت الأسئلة عددا وتعمقتْ. محاولة الإجابة عنها ستدخلنا في دهاليز مظلمة ليس من السهل تحسس طريقنا فيها. ومن المؤكد أنها ستثير الأكثر والأعقد من الأسئلة».

عندها تكلم الدكتور: «نحن من علينا واجب تفسير الأحداث واقتراح الحلول».

«سأستعرض ما قدّمناه من تفاسير نحن الذين تقصدهم. قلنا إن ما جرى ويجري ما هي إلّا مؤامرة تستهدف ديننا الذي نحن متناحرون حول الكثير من تطبيقاته. وقيل نحن قوم تأريخ موروثنا الثقافي متخم بالعنف والقتل والتدمير. هناك من ذهب إلى أنها عوامل وراثية متأصلة بنا تنتقل من جيل لآخر. وقيل غير هذا. أيها الأقرب للصواب؟ والأهم، هو الحل الذي سينجينا من هذه الدوامة. ذهب البعض أن ما يصيبنا هو قدر لا نملك رده. أيعقل أن يصل بنا الخور إلى حد أن نرمي فعلنا على الأقدار؟»

بدا لي أن النقاش معه لن يوصلنا إلى نهاية. الإحباط، واليأس، تمكّنا منه. ومن منا لم يحبط أو ييأس؟

«استأذنا الجليل...»

العبارة التي يستخدمها الدكتور عندما يريد أن يُخفف من انفعالات نعمان جابر، وغالبا ما ينجح. هذه المرة بدت عديمة الجدوى. لم يدعه يُكمل. هو من استرسل:

«يا نمير، اللغة، رغم كل ثرائها بالمفردات، انعدمت إمكانياتها في وصف ما نحن عليه».

التفت نحوي قائلا: «غسان، يمكن أن تعطي ملفك هذا العنوان «نعمان جابر ينهي قلمه بموت رحيم». الموت الرحيم هو حالة يلجأ إليها الأطباء في إنهاء حياة مريض ميؤوس شفاءه وبناء على طلبه ليتخلص من آلام لم يعد يحتملها».

أراد أن ينهي النقاش. وجّه كلامه لكلينا: «هل زرتما معرض الفنون التشكيلية للشباب؟ الأعمال المعروضة تُنبئ بإفراز جديد، تماما كما الظواهر الأخرى التي يلفظها رَحِم».

منى الحضري

حدث ذات قلب



الأربــعاء

لست أدرى مال الأربـعاء و مالنا؟ كما تعلم، معظم أحداثنا و مناسباتنا المشتركة كانت يـوم الأربـعاء، وكـنا نسميه الأربـعاء الحـبيب.
أتذكر يوم قلت لي «لو لم يكن غريبا ومستهجنا لأسميت ابنتنا (الأربـعاء)، ولكنك تشفق عليها من تعليقات ولمزات الآخـرين، وعساها كأمـها رقـيقـة لن تحـتمل؟»
وهمست لك يومها بخـوف أُم: «الأربـعاء مذكـر من الأسـاس»، وإذا بك تـملأ الدنيـا ضـحكـا. وعندما غضـبت، قلت لي: «ربما، و لكن ليس ذلك ما يضـحكني، إنما يضحكني اليقـين الذي تحـيـين به يا حــبيبتي».
وها أنا لم أعد أحـيا باليقـين، بل صار اليقـين أبعد ما يكون عني وعنك.
وها هو الأربعاء يدور ثم يعود، ولم نزل ندور في دائرة؛ وما أكثر الدوائر!

الظل

واتـفقا على أن ما جمعهما يوما ما صار تاريخا تاريخا مشـتركا اقتسماه عمرا. أما هو فيرى أن للتاريـخ قدسية وأي اعتداء عليه أو تدخل جـرم لا يغتفـر، وأن تاريخهما المشــترك ليس بماضٍ بقـدر ما هو حاضـر ومستقبل، والتاريـخ لا يتجـزأ، وعجـلة الحيـاة تسير بلا منتهى، فما بالـهما لو أن الذي جـمعهما حــبا غير كل حــب؟

ولكنها لم تعد ترى غير أن ما كان مجرد تاريخ، والتاريخ ماض لن يعود: يُكتب ويُقرأ ونتعلم منه دروسا للعمر، ورغم ذلك فهي لم تنكر قدسيته أبدا.

ثم أن ليس كل تاريخ من صنع البشر، فهناك يد القدر التي هدمت ممالك وشيدت أُخر، وأن ما جمعهما يوما ما، كان وانتهى أمره كما يقول الواقع، وإم تبقى شيء، فليس سوى ألفة سعدا بها يوما، وحاشاها أن تستحيل يوما إلى وحشة وجفاء.

ويراها مستبدة؛ بل أكثر استبدادا من ذي قبل، أما هي فلم تعد ترى. ولطالما رأته بعين القلب، والآن جل ما تحتاجه بعض الغمض تفهما لا انقيادا، وطلبا لراحة بعد تعب.

يحبها أم يحب نفسه لا يهم. وكما كان كلاهما ظلا للآخر، ربما عليهما تقبل النهاية بكل ما فيها من لوعة وألم بعد أن فقد كلاهما ظله.

الهروب

وبعد طول صمت وتحمل وتحفظنا الشديد قد تأتي كلمة تثنينا عن كل ما سكتنا عنه وتحّملنا من أجله، حروف قد لا نتبينها لحظيا حقيقة رغم ارتطامها بأعصابنا، بدمانا، بثوابتنا، وتهزنا هزا وتأبى إلا أن تطيح بنا حتى تتركنا حطاما. ومن هنا كانت البداية، وما أصعب أن تهزمنا الكلمات بلا رحمة. وكمتهمة تبادره مقاطعة شلالا من ظلمه إياها:

«ولكني لا أدعى هروبا، فأنا أهرب بالفعل».

«اهربي ولو ألف عام، ولكن تذكري أني قلت لك مرارا «ستكونين لي أو للذكرى.».

«من أين لك بكل هذه القسوة؟ لم تك قاسيا هكذا من قبل».

«كدأبك، أقسو على قطعة غالية منّي».

«وهل قسوت عليك من قبل؟»

«وأي قسوة! كبرياؤك قسوة، استغناؤك قسوة، نظرة رضا في عينيك تعصف بآمالي دفعة واحدة منتهى القسوة».

«إذن تعلمني جيدا، وعلى يقين بأني لن أحيد عما أراه عين الصواب».
«أي صـواب؟ ثم لماذا أنتِ من يحـدد؟ كفاك استبدادا. عين الصواب هو أن مصيرنا واحد كما عاشت خطانا عمرا في طريق واحد، وإلا لما كان ارتباط المصائـر على النحو الذي تعرفين، وطالما سنفترق يوما».
«وهل سنظل هكذا يدور كلانا في فلك الآخر، أم أنك لا تـدرك بعد أننا نـدور في دائـرة مفـرغة؟
«وقد ندور في دائرة، ولكنها ليست مفرغة طالما تضمنا معا، كفاكِ عِنادا».
«ليس عِنادا بل تعقلا أو رحمة ربي بنا، وليتك تعي كما وعيت».
«أعي وأتفهم وأمد يميني نحوك بسلامٍ متمنيا لكِ موفـور السعادة، لا لن يحدث، وتذكري دوما «إما لي وبين عيوني، وإما للذكرى. لكِ الخيـار».

صبر وصبر

لا أظن أنه يوجد من هو أحرص منّي عليها. كنت ولا أزال أخاف عليها من النسيم، من الناس وهي المحبوبة وربة القلوب.
هكذا هي دوما وكأنما تمتلك مفاتيح القلوب بلا قيد أو شـرط، ولكني وأنا الحريص عليها وعلى ما بيننا سأشكوها لكم.
أجل أبدو مضطر لذلك، ولكن الحقيقة غير ذلك، فكل ما في الأمر أنني أصبحت أخاف أن أضل السبيل إليها يوما وينتهي كل شيء.
سأشكوها لكم وهي العادلة، وكم ظلمني فيض من رضاء يلون عينيها ونحن بعيدين وغريبين. أشكو تلك الصابرة، وكم أتعبني صبرها! فإلى متى؟
ورغم أن كلينا يمتلك الصبر، لكن شتان بين صبري وصبرها، فأنا أصبر عليها ولا أطيق فراقها، أما هي فكم يروق لها الفراق ولا تصبر عليّ. تصادر حنيني إليها، لكلمة تذكرتها، لابتسامة أشتهيها، حتى زهدها الكاذب هذا أحن إليه لدرجة جعلتني مع الوقت زاهـدا مثلها، مع فارق: زهدت نساء الدنيا عـداها.
سأشكوكِ له إذن، لرداء من الحكمة تلبسين أشكوكِ، ولكم أحب حكمتك

وأهيم بها كما تعلمين ولكني تعبت، أتعبني سلام نفسك رغم رحى الحرب الدائرة بقلبك الكبير، وبروحك النقية، تلك الحرب الضروس بين ما تريدين وما تحتاجين.

تعبت وكنتِ راحتي والآن أصبحتِ أمنيتي الوحيدة وما أعزها!

حبيبتي: سأشكو منكِ إليكِ، فهل من سبيل؟

ظهور الكلمات

يريحها الحديث إليه لكأنه واحتها الخضراء عبر الكلمات.

أتدرون؟ ثمة كلمات تصبح ظهرا لصاحبها، ولكنها تصمت، ففي حنايا قلبها لوعة وبقايا دموع أثقل من أن تحملها ظهور الكلمات.

استحقاق

أتذكر يوم قلت لك إن الحياة التي تحدثني عنها تحتاج إلى إنسانة لديها قلب. وتلك التي أمامك الآن ثمة قلب أمسى بحاجة إلى إنسانة قادرة على الحياة فحسب.

فلتتذكر وحدك فأنا لم أنس. وكيف أنسى شعاعا من صِدق اخترق ظُلمة أيامي؟

أجل لم أنس، فسعادتنا تستحق أن نسعى إليها بكل ما نملك من قوة وضعف وحياة.



زهيرة خليل زقطان

ذكرياتي في الكرامة



في الرحلة المدرسية السنوية تشرح معلمة التاريخ سيرة المكان لطالباتها بنات مدرسة مخيم الكرامة الإعدادية. وكنا كما اصطفاف السنونو نصطف كسرب حط حول الماء. تتلاصق أكتافنا وتتشابه ملامحنا وأسماءنا ومرايلنا المدرسية المقلمة بالأخضر؛ نشبه بعضنا. كم كنا نشبه بعضنا على حافة الماء في تلك الرحلة في بداية الستينات:

هنا قرأ المسيح السلام على النهر وبارك يوحنا المعمدان الماء. هنا صلى المصلوب لإخوته ليكونوا بخير دائما، قبل أن يخوضوا النهر باتجاه الشرق فيما بعد. ومن هنا خرج إخوته إلى الضفة الأخرى ولم يكونوا بخير أبدا.

ومثلهم عبر من هنا أبي وأهلي ومن قبل جيراني الذين استبقونا إلى المخيم وعلقوا قبلنا خشبة صلبهم على أبواب الزينكو. مروا عن الجسر خارجين من جنوب البلاد وساحلها، صلبانهم في أمتعتهم، وصخرتهم السيزفية على الظهر، ومشوا في نتوءات الطريق إلى مصائر أعدت لهم.

كنت في التاسعة حين ارتحلنا من الخليل إلى مخيم الكرامة على الضفة الأخرى من النهر، وأقمنا في بيت طيني ملحق بمركز الشباب الاجتماعي حيث عمل والدي مشرفا على المركز، متنقلين من مخيم عقبة جبر إلى بيت لحم ثم بيت جالا ثم الخليل ومخيم العروب حسب وظيفة والدي، والآن مخيم الكرامة، وهي الرحلة الأبعد.

بطريقة ما كان النقل عملية إبعاد. صودر قبلها ديوان والدي «صوت

الجياع». وأغلقت على الكتاب بوابة زنزانة سجن الخليل كأي معتقل. وسيستمر الحظر سنوات، ليخرج الكتاب مع المعتقلين في حرب حزيران، حين فتحت الحرب بفعل الاحتلال والفوضى أبواب السجون، وغاب الحراس، فخرج السياسيون إلى سجن أكثر ضيقا، وهزيمة أكثر ثقلا وأكبر حجما. لا أدري كيف وصلت نسخ من ديوان أبي إلى بيتنا الطيني عابرة بدورها الجسر إلى مخيم الكرامة.

بيت وكالة الغوث كان بيتنا الأول. بيت من طين وقصب ككل بيوت منطقة غور الأردن؛ وكأن الطين يغوي بألفة المساحات الضيقة؛ سنألف البيت وبساطة الطين ورائحة القصب حين يبتل؛ شجرة السدر في حوش صغير خلف البيت وأخرى أمام البيت؛ باب الزينكو أو بوابة الحوش الذي سنعتاد دقة الطارق عليه.

في الكرامة سأدخل تفاصيل المكان؛ من تلك البوابة حتى الوصول إلى بوابة المدرسة:

في طريق لا تزال طويلة في مخيلتي؛ على شمالي مطعم يقدم وجبة الغداء للطلاب ولمن يحمل بطاقة تمكنه من الحصول على وجبة (المطعم)؛ ثم بوابة العيادة الطبية المزدحمة بمرضى استبقوا الصباح آتين للعلاج في العيادة الوحيدة للمخيم والتابعة لوكالة الغوث؛

مخفر الشرطة جوار العيادة. تشدني (الفرسان) على جانب المبنى في زي يختلف عن زي رجال الشرطة وخيولهم المربوطة إلى حائط المبنى؛ مشهد غامض ينطبع حتى الآن بغموض في الذاكرة؛ ثم بناية (المؤن) ومهرجان توزيع المعونة الغذائية في نهاية كل شهر في طابور يسبق طلوع الشمس؛ نساء ورجال وأطفال وطلبة غابوا عن حصصهم الدراسية لمساعدة الأهل في استلام المعونة الشهرية.

ربما من هناك بدأت الأسئلة. وربما من جغرافية المخيم الواقع على طرف بلدات الشونة كحاجة فائضة أو علامة فارقة في الوجه. وحين تتسع المعرفة سأعرف أن المخيم فائض عن حاجة المدن أين حط رحاله؛ وسيكون دائما كالهامش الغامض إضافة زائدة حين يتجدد المشهد في العروب وفي اليرموك وفي صبرا وشاتيلا في سلسلة لا تنتهي.

تناقض اسم المخيم مع جغرافية الواقع؛ ضيق الأزقة والشارع الرئيسي

المفروش بالتراب؛ بيت الطين وسقف البوص؛ ثم الماء المالح الذي يتدفق من حنفية في حوش البيت؛ سنشرب ماء بملح؛ وسيكون لنا قسوة واسعة هبة من الطبيعة في الصيف والشتاء.

سنعتاد ضيق المخيم (المخيم دائما ضيق) وسيخلق ضيق المكان عادة انتفاء التناسب بين المساحة وعدد الأفراد، لذلك سيخرج الطلبة بالواجبات المدرسية إلى فضاء الأرض، إلى (المزارع) الاسم الشائع للمنطقة الزراعية التي تميز بها المخيم.

كان البيت بدوره على طرف (المزارع) تمر عنه العشّابات بعد صلاة الفجر وقبل طلوع الشمس ليتوزعن على أحواض النعناع والبقدونس وأشتال البندورة؛ هن الأمهات والأخوات والجارات يرتبن باقات البقدونس والنعناع من الصبح للمساء ويصلين الظهر والعصر على حافة قناة تسقي المزروعات بأدعية بطعم النعناع والإنهاك.

وصلنا متأخرين عن معركة المخيم مع قسوة الأرض في الخمسينات؛ وجدناهم هناك قبلنا قادمين من الرملة واللد وقرى القدس ويافا، من بيت دجن وعجّور وبيت محسير. غسلوا التربة من الملح قبل أن نصل ومدوا خصل الخس وشتلات البندورة والبذنجان والسبانخ حتى حافة النهر؛ مهنة سيمارسها معظم سكان المخيم في وفاق مع تربة غسلوها من العقارب بأيديهم ومهدوا طريقا للأولاد بين الممرات المزروعة للدراسة؛ كانوا رجالا ونساء معا يشعلون الخضرة في رغيف الخبز.

وتمشي الكتب بالواجبات المدرسية مع الطلبة في ذلك الامتداد الذي مهده الآباء في ممرات هي أيضا ضيقة بين المزروعات الممتدة حتى حافة النهر؛ (لم تكن الكهرباء قد تمددت على عروق أسقف القصب في الغرف الضيقة).

نبدأ صباحنا في طوابير مرتبة؛ هناك قرأنا الفاتحة والسلام الملكي ونشيد للجزائر (وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر) وموطني. ونفخنا في بوق الأحلام بحناجرنا الصغيرة قبل العبور إلى الغرف الدراسية؛ كانت الأناشيد منسجمة مع ذاكرة الأهل وتنهيدة الجدة الطويلة؛ مع التعليق السياسي بعد نشرة الأخبار في الإذاعات العربية والمنشورات الممنوعة فيما بعد؛

وفي الأعراس المتقشفة كانت أغاني النساء تحاول بعث الحياة في الأغاني؛ تحيي قرى بعيدة مدفونة الأسماء؛ تصف عريشة العنب وندى

تين الصباح وسياج الصبر حول البيت وتنادي على ثوار مضوا بأسمائهم ومعاركهم؛ الثوار المجاهدين منذ القسام وحتى الحسيني الذي كانت صورته بالبارودة وزيه العسكري المزنر بحزام الفشك معلقة على حائط بيتنا؛ ساحرا وجميلا مثل روايته في القسطل مرتبة وحقيقية وكأنها خارجة الآن طازجة وبهية؛ وبجوارها صورة عسكري مقصوصة من جريدة سأعرف فيما بعد أن اسم العسكري جمال عبد الناصر.

تنقلب حياتنا الصغيرة في الاحتفالات المدرسية في ذكرى النكبة ووعد بلفور؛ نصبح أبطالا في التمثيلية التي تعاد كل عام. توزع مربعات من الكرتون الأبيض تحمل كل طالبة مربع عليه اسم قريتها أو مدينتها؛ على مسرح معد من مجموعة من طاولات الصفوف يفرش عليه غطاء فوق المسرح نقف طالبات نحيلات (لنذكر يوما كنا بيافا) ممتلئين بالأمل ومتأكدين من عبور النهر.

نهر الأردن أو (الشريعة) كان لا يزال قويا وقادرا على الهدير الذي يتكاثف في الشتاء؛ النهر الذي يفيض كل شتاء يعززه سيل يندفع من جبال السلط المرتفعة بانحدار حاد وعنيف مترافقا مع هدير مخيف يركض باتجاه النهر ويفصل في طريقه المخيم إلى قسمين؛ ذاك الفيض الذي يرمي فيه النهر أسماكه على الضفاف فيذهب أولاد المخيم لجمع السمك الفائض. وأتذكر تلك السلة الممتلئة بسمك النهر التي أحضرها أحد الجيران إلى بيتنا؛ ربما ذلك اليوم توحدت في معظم بيوت المخيم وجبة واحدة. النهر الفائض والمخيم الممتلئ بالعائدين وكلمة العودة التي تجاور اسم المخيم؛ المخيم الذي سيذهب معظم شبيبته إلى التنظيمات التي بدأت تطل برؤوسها الخضراء مع خضرة المخيم والذي أخلى معظم سكانه بيوتهم بعد حزيران ومعركة الكرامة في 1968.

بدأت الحماسة تدب في الأقدام الجريئة متسللة لمهماتها خلف النهر وأصبح الأمل اسما يطلق على المواليد الجدد في الكرامة ويمتد إلى المخيمات الأخرى. كانت معركة الكرامة المرحلة الفاصلة في تاريخ الثورة والتاريخ العربي واختيار الطريق بلا محايدة.

كنا مؤمنين بالعبور؛ بحراسة المسيح على حافة (المغطس) وأن النهر لن يخذل النبي؛ واستعنا على الحلم بمسيرة التاريخ التي محت أقدام غزاة عبروا من هنا، وبممحاة طلبة المدارس الذين أتموا واجباتهم المدرسية خارج البيت وأكملوا أناشيد الصباح وكتبوا مع آبائهم أسماء المدن والقرى على

مقاهي المخيم والدكاكين الصغيرة والأزقة وعربات الخضار؛ واستداروا في المساء عائدين خلف العشابات المنهكات في عربات تجرها أحصنة كهلة عائدة بنهارهم إلى غرف المخيم.

سنبتعد عن المخيم في هجرات متتالية وسنصل بيروت والحلم في الحقيبة جوار رائحة الطين والقصب والبيت الذي ألفناه في افتقاد حار وحميم؛ وفي القلب صورة التقطتها العين؛ صورة لم تذبل ولم تتشقق بفعل الزمن؛ لمساحة من تراب خلف البيت تعلق تحت الجلد؛

هناك قرب شجرة السدر الضخمة رأيت أبي يخرج دفاتره المدفونة ينفض الطين عن حواف الشعر المتآكلة في دفاتره. القصائد التي على طرف الورق مقطعة وغائبة أو ذائبة في طين؛ هي أيضا تحررت بعد حزيران. أذكر الغلاف الأخضر والأحمر لدفترين عدت بهما إلى رام الله في عام 1995 مع (قدّورة) الذي لم يعد ذاك الرجل الغامض الذي كان يحمل إلى بيتنا ماء الشرب الخالي من الملح، (قدّورة) كما كتب أبي مرثيته يوم موته.

قدّورة إنسان قذفته النكبة إلى مخيم الكرامة للاجئين؛ لم يكن له أهل أو أقارب في المخيم؛ وعندما مات شيعه أولاد المخيم بكوميديا سوداء. أما وكالة الغوث فسارعت لقطع (بطاقته) التموينية والعلاجية؛

قدُورةُ

قدُورةُ ماتْ
ما أهون تلك الكلمات
. . .
في التل دفناهُ
من وسط الزحمةِ من قلب الشارعِ لم نسمع آهْ
لم نُحرجْ بسؤالٍ منْ؟ وإلى أين حملناهْ؟
ويطوفُ الموكبُ يُنشدُ في إصرارْ
قدورة واريناهْ
. . .
لم تلطمْ خداً أيُ عذارى الشارعْ

لم تلبسْ اسودْ أيُ فتاةْ
لمْ تُرسلْ تعزيةٌ من أحدٍ
لمْ يتقبلْ تعزيةً ـــقُرباهْـــ
. . .
إنسانٌ مرَ على الدنيا كالنسماتْ
لمْ يظلمْ لمْ يقتُلْ أحداً .. لمْ يُورثْ تَركاتْ
غضاً من أرض بلادي خلقتهُ المأساةْ
قذفتهُ بعيداً
في التيه الأسود في الظلماتْ
. . .
قدورةُ ماتْ
وكثيراً...ماتْ
وتفضل ربُ الرحماتْ
يقتلُ قدورة
يمحوهْ من كلٍ ـــالكرتاتْـــ
يعلنُ للأمم المتحدةْ
رقمٌ من شعبي ماتْ
= = =
1965-1-25
مخيم الكرامة
= = =

زهيرة خليل زقطان: شاعرة وباحثة في تاريخ الشعب الفلسطيني ولها في هذا المجال كتاب عنوانه «كنعانيات». ولها مجموعة قصصية بعنوان «أوراق غزالة»، ورواية بعنوان «مضى زمن النرجس» (2007). وهي فنانة تشكيلية باستخدام التطريز بخيوط الحرير.

سليم علي الهواري

الرياضة في الكرامة



مخيم الكرامة واحد من مخيمات اللجوء التي سكنها اللاجئون الفلسطينيون إثر خروجهم من ديارهم فلسطين بعد احتلالها عام 1948. والمخيم أقيم إلى الشمال من بلدة الشونة الجنوبية وعلى بعد سبعة كيلو مترات منها. وكلاهما يتبع لواء البلقاء إداريا. كما يقع المخيم على بعد كيلو مترات قليلة شرق نهر الأردن. أقيم المخيم على ارض أميرية، والملك عبد الله الأول هو من أطلق اسم الكرامة على المخيم. ويشق المخيم طريق يربط بين العاصمة عمان ومدينة نابلس في الضفة الغربية عن طريق جسر دامية.

ضم المخيم خليطا من أهالي فلسطين القادمين من مختلف المدن والقرى فيها. وعند الشروع بتنظيم المخيم، عمد القائمون عليه إلى تخصيص مواقع محدده لكل قادم بحيث يكون هناك تجانس بين السكان، فخصصت أماكن للقادمين من اللد، وأُخرى للقادمين من يافا وثالثه للقادمين من الرملة ومناطق لأهالي عجور وبيت دجن وبيت محسير والفالوجة وأبو زريق وأبو شوشه وطيرة حيفا وغير ذلك

وفي الخمسينيات، كانت الحزبية والانضمام لها أمل الفلسطينيين في المخيمات الذي يلوح لهم من اجل استرجاع وطنهم السليب. وكان لحركة الإخوان المسلمين وحزب البعث وحركة القومين العرب أنصار كثيرون في المخيم وكان التنافس بين أنصار كل حركة على أشده، فإذا نظمت حركة

الإخوان احتجاجاً سعى الآخرون لتقليدهم والعمل على شاكلتهم من تظاهرات، مع ما يصاحب ذلك من صدامات دامية بين الجميع. وفي إحدى مرات الاحتجاج جرى إطلاق نار من شرطة أمن المخيم على المتظاهرين الذين قام أحدهم بسرقة بندقية من مخفر الشرطة. وكان من تداعيات ذلك تطويق المخيم وفرض منع التجول على سكانه بقيادة ضابط إنجليزي يعاونه في ذلك ضابط أردني اسمه صالح الشرع الذي كان له دور مهم في البلاد بعد تعريب الجيش. رفع منع التجول بعد استرداد البندقية.

وكالة غوث اللاجئين أقامت مراكز للشباب لشغل أوقات فراغهم وتنمية قدراتهم في كافة مخيمات اللجوء وأطلقت عليها مسمى مراكز الشباب الاجتماعية. اهتمت حركة القومين العرب إبان ذروة نشاطها في المخيم بالرياضة خاصة كرة القدم حيث بادر واحد من قيادييها بتكوين فريق لكرة القدم نال شهرة كبيرة وكانت له صولات وجولات في هذا المضمار فقد تولى الدكتور وديع حداد أحد مؤسسي حركة القومين العرب والذي عمل طبيباً بالمخيم قيادة الفريق ولعب مدافعاً فيه ولعب معه الأستاذ محمود الفجاوي المدرس بالكرامة مهاجماً، إضافة إلى لاعب أطلقنا عليه لقب الأمريكاني، ولاعبين آخرين منهم محمد الشاعر ومحمد الناطور الملقب بالضبع. وكان حارس المرمى عارف السلال. وانتهى عهد هذا الفريق وتبعثر بعد صدور أمر حل الأحزاب وحظرها في المملكة.

* * *

أشرف على مركز شباب الكرامة (النادي) في البدء الأستاذ احمد محمد خالد. ومن اهم الأحداث الرياضية في فترة الستينيات تنظيم مهرجان رياضي ومسابقات في ألعاب القوى لطلبة مدارس منطقة أريحا الذكور شملت مخيمات عقبة جبر والنويعمة وعين السلطان إضافة إلى الكرامة. وكان مدير المهرجان الأستاذ محمد مشعل.

وحظي المهرجان برعاية ملكية، وقام الملك الحسين بتوزيع الجوائز على الفائزين. وكان من ثمار هذا المهرجان قبول كل من محمود النصراوي وخالد الدجاني في سلك الأمن العام الأردني.

ثم بدأ جيل آخر ينمو ويمارس نشاطه في المركز بعد أن أنيط الإشراف

عليه للأستاذ الشاعر خليل زقطان حيث شهدت فترة إشرافه إقامة ملعب قانوني لنشاط كرة السلة والطائرة. وكان من ابرز من مارس هذا النشاط كل من: حسن جمعة، وإبراهيم الزقرطي، ويحيى حسين أبو حرب ، وعزمي نمورة ، وجبر أبو نِمْرة ، ومحمد المغربي، وسليم الهواري، وعبد العزيز أبو حشيش.

وكان يمارس في مركز الشباب لعبة كرة الطاولة ورفع الأثقال. أما ممارسة كرة القدم فكانت على ملعب صغير. وكان من أبرز اللاعبين في حينه سعد الرُّزي، الذي كان مدافعا صلبا في الفريق. ومن أبرز النشاطات التي جرت على ملعب كرة السلة استضافة فريق كرة سلة السفارة الأميركية في الأردن، وجرت المباراة بحضور السفير وجمع غفير من وجهاء المخيم.

* * *

كان من أبرز أهداف المشرفين على المراكز إعداد كوادر تدريبية من شباب المراكز يتولون تدريب زملاءهم بعد العودة. وتم تنظيم دورة تدريبيه لرواد المراكز شملت ألعاب كرة السلة والطائرة وألعاب القوى. وتولى مهمة التدريب وإعداد هذه الكوادر نخبة من أفضل الرياضيين في الساحة الأردنية، وهم الأستاذ محمد خير مامسر الذي أصبح وزيرا للرياضة في الحكومة الأردنية وتولى التدريب في مجال كرة السلة؛ والأستاذ محمد يوسف بزادوغ وتولى التدريب في مجال كرة الطائرة؛ والأستاذ نظمي السعيد وتولى التدريب في مجال ألعاب القوى. أقيمت الدورة على ملاعب مدارس الفرير برام الله.

وتم تنظيم دورة تدريبية في التحكيم في كرة القدم أشرف عليها كل من الأستاذين فوزي معتوق وريمون زبانة. وجرى عقد اختبار تحكيمي في كرة القدم أشرف عليه الأستاذ سليمان طبل عضو الاتحاد الأردني لكرة القدم. وقد مثلت مركز شباب الكرامة، وكانت نتيجة الاختبار نجاحي كحكم مبتدئ في كرة القدم معتمد لدى الاتحاد الأردني.

ومن شباب المخيم الذين كانت لهم مساهمات واضحة في الرياضة الأردنية الأستاذ سعد الرزي الذي تخرج من كلية الرياضة في بغداد ومن ثم أصبح عضواً في اتحاد ألعاب القوى الأردني. وكذلك الأستاذ يحيى حسين أبو

حرب الذي تخرج من كلية الرياضة في بغداد وأصبح عضوا في اتحاد كرة السلة الأردني.

أما بقية من مارس الرياضة في مركز شباب الكرامة فقد توزعوا في مناحي الحياة، فغدا منهم الطبيب والمهندس والأستاذ الجامعي والمدرس والمهني وغاصوا في مناحي الحياة. من قضى منهم لروحه الرحمة. ومن بقي منهم كان التوفيق حليفه، فهم الآن على عتبات الشيخوخة. حفظهم الله جميعاً.

سليم علي الهواري: إخصائي اجتماعي سابقا، ولاعب كرة سلة وغيرها في الكرامة.

للباحثات والباحثين

مواقع مصادر مفتوحة

ايمانا من هيئة تحرير «عود الند» بأهمية المراجع للتمكن من إعداد بحوث عالية الجودة، نشير بين الحين والآخر إلى مواقع غنية بالمراجع المفتوحة. وفي هذا العدد (الفصلي الرابع؛ ربيع2017) نود الإشارة إلى المواقع التالية:

موقع مخصص لدراسة الثورة الفلسطينية

http://learnpalestine.politics.ox.ac.uk

موقع الوثائق التاريخية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

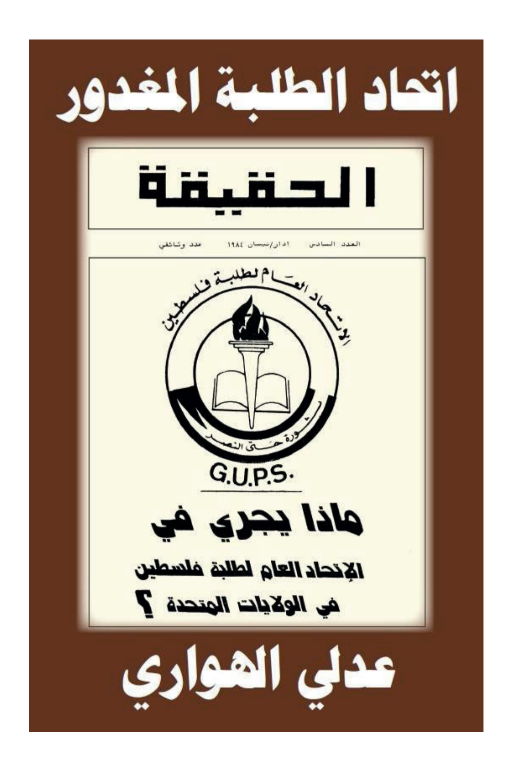
http://pflp-documents.org

وثائق العمل الطلابي الفلسطيني في الولايات المتحدة: 1980-1984

http://www.adli.uk

إصدارات جديدة

طبعة ثانية من «اتحاد الطلبة المغدور»



صدرت في لندن الطبعة الثانية من «اتحاد الطلبة المغدور»، الكتاب الذي يوثق فيه مؤلفه، د. عدلي الهواري، تجربة تأسيس وانهيار فرع الاتحاد العام لطلبة فلسطين في الولايات المتحدة في النصف الأول من عقد الثمانينيات.

يمزج الكاتب بين ذكرياته كطالب أجنبي درس في الولايات المتحدة، وذكريات المشاركة في العمل الطلابي العربي والفلسطيني، وتأسيس فرع للاتحاد العام لطلبة فلسطين في الولايات المتحدة عام 1980، وتجميد هيئته الإدارية المنتخبة بعد أربع سنوات من التأسيس، وهو في ذروة العطاء في العمل من أجل القضية الفلسطينية.

عدد صفحات الكتاب 128 صفحة من حجم (ايه 5). ويمكن شراء نسخة من خلال مواقع أمازون أو «عود الند».

إرشادات النشر

مجلة «عـود الـنـد»

بعد إكمال «عـود الند» عشر سنوات من الصدور شهريا في شهر أيار (مايو) 2016، تقرر تحويل المجلة إلى فصلية، ويعني ذلك صدور أربعة أعداد سنوية فقط، وفق الجدول الزمني التالي:

=1= ربيع 2017: مطلع آذار (مارس) 2017.

=2= صيف 2017: مطلع حزيران (يونيو) 2017.

نرحب بتلقي مشاركات عالية الجودة للنشر في الأعداد الفصلية. الأولوية في النشر للبحوث الأصيلة عالية الجودة، وليس للقصص القصيرة والخواطر. لزيادة فرص قبول مشاركتك للنشر، من الضروري مراعاة كل الشروط التالية.

(1) توثيق الأفكار والمقتطفات المنقولة توثيقا كاملا. أي نقل غير موثق لا يعني رفضا للمادة المرسلة فقط، بل رفض كل ما يرد بعد ذلك دون الاطلاع عليه.

(2) يجب أن يذكر اسم المنقول عنه في جسم النص، لا أن يدفن الاسم في قائمة المراجع. لذا يجب أن يكون في جسم الموضوع عبارات من قبيل ويقول فلان الفلاني، وتشرح فلانة الفلانية، وغير ذلك من أفعال تـناسب سياق سرد المعلومات وتحليلها ونقدها.

(3) أسلوب التوثيق الذي تفضله «عود الند» ذكر اسم الكاتب/ة وسنة صدور المرجع ورقم الصفحة. على سبيل المثال: ويقول فلان الفلاني (1985، ص 49) ....

(4) قائمة المراجع يجب أن تكون مرتبة حسب نظام معروف، ولا يختلف توثيق مرجع عن آخر ضمن قائمة المراجع الواحدة.

(5) اتباع أحكام الطباعة بالكامل: لا فراغ قبل النقطة والفاصلة وغيرها من علامات الترقيم، ويجب عدم الفصل بين واو العطف والكلمة التي تليها. عدم الاكتراث بهذه الأحكام = رفض الموضوع فورا.

(6) استخدام علامات الترقيم استخداما صحيحا. يجب أن يكون واضحا للقارئات والقراء أين تبدأ الجملة، وأين تنتهي ولا يترك الأمر للتخمين، أو يفترض أنه واضح. يجب أن تنتهي الجملة بنقطة دائما. عدم الاكتراث بهذه الأحكام = رفض الموضوع فورا.

(7) الاقتصاد الشديد في استخدام كلمات بالإنجليزية والفرنسية لأنها تؤثر على تنسيق السطور والفقرات عند النشر على صفحات موقع المجلة.

(8) الجداول والرسمات التوضيحية التي يمكن تنفيذها باستخدام برنامج وورد لا يمكن نشرها في صفحات موقع المجلة. المواد التي تعتمد على الجداول والرسمات التوضيحية معرضة للرفض لهذا السبب بصرف النظر عن جودتها.

(9) إرسال المادة المرغوب في نشرها من خلال موقع المجلة، باستخدام نموذج خاص بذلك. لا نستقبل مواد للنشر عبر وسائل التواصل الاجتماعي، ولا برسائل بريد إلكتروني مباشرة.

النشر في المجلة مشروط بالموافقة على سياسة النشر. سياسة النشر واضحة، وليست قابلة للتفاوض. تخضع كل المواد المرغوب في نشرها إلى إجراءات تتأكد من أن معلوماتها موثقة توثيقا كاملا. ولكي نقوم بهذه المهمة، لن ينشر أي موضوع قبل مرور ثلاثة شهر على الأقل. راجع/ي موضوعك أكثر من مرة قبل إرساله. مهمتك إرسال مادة عالية الجودة مستوفية لكل المواصفات أعلاه. ومهمتنا توفير المنبر للنشر.

«عـود الـنـد» توفر لك كل المعلومات اللازمة بخصوص توثيق البحوث وغير

ذلك من معلومات أساسية في موقعها، والإنترنت مليئة بالمواقع المختصة بالتوثيق والأمثلة على توثيق كل أنواع المراجع.

فور إرسال مادة للنشر، سيصلك منا أولا رد آلي فيه نسخة من رسالتك. بعد ذلك، إذا لم يصلك رد شخصي خلال ثلاثة أسابيع فهذا يعني أن موضوعك لم يقبل للنشر.

تذكير: «عود الند» لا تنشر الشعر بمختلف أشكاله.

===

تابعونا في مواقع التواصل الاجتماعي

تويتر : @oudalnad

غوغل + : oud al-nad

فيسبوك (إعجاب) : oudalnad

فيسبوك (صداقة) : oudnad

عــود الـنــد في سـطـور

- صدر العدد الأول من مجلة «عـود الـنـد» الثقافية مطلع شهر حزيران (يونيو) 2006. وصدرت شهريا عشر سنوات متالية.
- حصلت «عـود الـنـد» من المكتبة البريطانية على رقم التصنيف الدولي للدوريات في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) 2007. الرقم الخاص بـ«عـود الـنـد» هو: ISSN 1756-4212
- شارك في «عـود الـنـد» كاتبات وكتاب محترفون ومبتدئون من الدول العربية والمهجر.
- بعد اتمام العام العاشر، وصدور 120 عددا شهريا، تقرر تحويل المجلة إلى فصلية.
- ناشر المجلة د. عدلي الهواري. له خمسة كتب، ثلاثة بالعربية:
  - **اتحاد الطلبة المغدور؛ بسام يبتسم؛ كلمات عود الـنـد؛** واثنان بالانجليزية عن مدى توافق الديمقراطية والإسلام وما يسمى الإسلام السياسي.

www.oudnad.net